

سُورَةُ الْعَمْرَانِ

مدنية وآيتها مئتا آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تُسَمَّى هي والبقرة بالزهاوين، وتسمى الأمان والكنز، وقد ورد في فضلها أحاديث كثيرة. سبب نزول هذه السورة الكريمة، وفد نصارى نجران، فقد روى محمد بن إسحق قال: «قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكباً فخاصموا في عيسى عليه السلام، فقال لهم ﷺ: أستم تعلمون أن الله تعالى حيٌّ لا يموت، وعيسى يموت؟ وأن ربنا قيِّم على العباد يحفظهم ويرزقهم، وعيسى لا يقدر على ذلك؟ وأنه تعالى صوّر عيسى في الرحم، وحملته أمه ووضعته وأرضعته، وكان يأكل ويُحدث، وربنا منزّه عن ذلك كله؟ قالوا: بلى، ثم قالوا يا محمد: ألسنت زعم أنه كلمة الله وروح منه؟ قال: بلى، قالوا: فحسبنا»^(١).

﴿الْعَمْرَانُ﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾

(١) انظر كامل القصة في تفسير ابن كثير ٣٧٦/١ وهي من رواية محمد بن إسحق.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أي الباقي الدائم، القائم على تدبير شؤون العباد ﴿زَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ القرآن منجماً ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي نزله محققاً في تنزيله على ما هو عليه، أو ملتبساً بالعدل في أحكامه، وبالصدق في أخباره ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي لما قبله من الكتب السالفة، وفائدة التقييد بها، حثُّ أهل الكتاب على الإيمان به ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ تأكيد لما قبله، وتمهيد لما بعده، إذ بذلك يترقى شأن ما يصدقه رفعةً ووجاهةً، ويزداد في القلوب قبولاً ومهابةً، ويتفاحش حال من كفر به شناعةً.

﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل القرآن، والتصريح به للمبالغة في البيان ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ أي أنزلهما هداية للناس، والمراد بالناس الأمم الماضية، من حين نزولهما إلى زمان نسخهما ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ يريد به جنس الكتب الإلهية، فإنها فارقة بين الحق والباطل، ذكر ذلك ليعمَّ ما عداها، كأنه قال: وأنزل سائر ما يفرق بين الحق والباطل، أو المعجزات ﴿لَهُمْ﴾ بسبب كفرهم ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وهو وعيد، جيء به إثر تقرير التوحيد، زجراً عن الكفر والعصيان ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يمنع من التعذيب ﴿ذُو أَنْتِقَامٍ﴾ لا يقدر على مثله منتقم، والنقمة عقوبة المجرم، ولم يقل المنتقم، لأنه أبلغ منه، إذ لا يقال صاحب سيف إلا لمن يكثر منه القتل، لا لمن معه سيف.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي شيء كائن في العالم، كلياً كان أو جزئياً والمراد من الأرض والسماء العالم بأسره والتعبير بعدم الخفاء أبلغ من التعبير بالعلم، وهو كالدليل على كونه تعالى حياً قديراً، مالكاً لكل الأشياء.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ تصويركم من الصور المختلفة المتفاوتة في الخلقة، أبيض أو أسود، حسناً أو قبيحاً، كاملاً أو ناقصاً، والتصوير جعل الشيء على صورة لم يكن عليها، أي يصوركم وأنتم في الأرحام مُضْغ، وفيه من الدلالة على بطلان زعم ربوبية عيسى،

وهو في جملة أبناء الأرحام ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يعلم غيره ما يعلمه، ولا يقدر على مثل ما يفعله ﴿الْفَرِيزُ الْحَكِيمُ﴾ المتناهي في القدرة والحكمة، ولذلك يخلقكم على نمط بديع، كرر الجملة للدلالة على نفي الإلهية عن غيره تعالى، توكيداً لما قبلها، ومبالغة في الرد على من ادعى إلهية عيسى عليه السلام، ثم أتى بالحكمة لأن خلقهم على ما ذكر من النمط البديع، أثار من آثار تلك القدرة الباهرة.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تَزُغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴿٩﴾﴾

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ شروع في إبطال شبه الضالين، ولام الكتاب للعهد، أي القرآن الكريم ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ أحكمت عبارتها، لظهورها ووضوحها ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أصله، تُرَدُّ إليها غيرها في الأحكام، والعرب تسمي كل جامع يكون مرجعاً أمّاً ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ أخر جمع «أخرى» مؤنث آخر، ومتشابهات صفة لمحذوف أي محتملات لمعان متشابهات، لا يمتاز بعضها من بعض، ولا يتضح الأمر إلا بالنظر الدقيق، وحكمة ورود المتشابهات، إظهار فضل العلماء فيها، والتشويق على أن يجتهدوا في تدبرها، واختبار للإيمان بالغيب ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ عدول عن الحق، قال الراغب: الزيغ الميل عن الاستقامة إلى أحد الجانبين؛ ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾ فيتعلقون بظاهره، معرضين عن المحكمات، لا تحريماً للحق بعد الإيمان بكونه من عند الله تعالى، بل

﴿أَبِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم، ويضلّوهم بالتشكيك والتلبس، ومتى أوقعوا تلك الفتنة، صار بعضهم مخالفاً للبعض، وذلك يفضي إلى التقاتل، والهرج، والمرج، فذلك هو الفتنة ﴿وَأَبِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ هو أن يأخذ ظاهر المتشابه، ويحمل لفظه أحد المحتملات التي توافق أغراضه الفاسدة، ويقرر البدعة والباطل، ويؤول حسبما يشتهي^(١) ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ الذي يجب أن يحمل عليه ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ والحال لا يهتدي إلى تأويله إلا الله، والوقف لازم عند الجمهور على قوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ وفسبروا المتشابه بما استأثر الله بعلمه، كوقت قيام الساعة ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ أي الذين ثبتوا وتمكنوا فيه، ولم يتزلزلوا في مزالّ الأقدام، ومداحض الأفهام، والمراد بالعلم «العلم الشرعي» المقتبس من مشكاة النبوة، فإن أهله هم الممدوحون بقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ أي بالمتشابه، وهو ثناء عليهم بالإيمان واعتقاد الحقيقة بلا تكييف، وهذا قول أكثر المفسرين ﴿كُلُّ﴾ من المحكم والمتشابه ﴿مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ من عند الله تعالى، لا مناقضة ولا مخالفة بينهما، وفي التعبير بالرب، إشارة إلى سر إنزال المتشابهات، والحكمة فيه لما أنه متضمن معنى التربية، والإيصال إلى معارج الكمال، وقد قالوا: إنما أنزل المتشابه لذلك، وليظهر فضل العلماء، ويزداد حرصهم على الاجتهاد في تدبره، وتحصيل العلوم التي نيط بها استنباط ما أريد به من الأحكام الفقهية، فينالوا بذلك المدارج العالية، وذلك من التربية والإرشاد ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ مدح للراسخين بجودة الذهن، وحسن النظر، للاهتمام إلى تأويله، لما أنهم قد تجردوا عن الأهواء الزائغة.

(١) التأويل: كشف المراد عن المشكل من الآية، وأكثر استعمال التأويل في المعاني، فلو قلنا في قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ إنه أريد به إخراج الفَرْخِ من البيضة كان تفسيراً، وإذا قلنا: يراد به إخراج المؤمن من الكافر، أو بالعكس كان تأويلاً، فالتأويل بيان المراد من اللفظ غير الظاهر منه، مشتق من آل، يؤل، أو لا وماً: إذا رجع، وأما التفسير فهو توضيح المعنى المراد، فتنبّه والله يراكم.

﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا ﴾ أي قولوا: ربنا لا تزغ قلوبنا عن نهج الحق، إلى اتباع المتشابه بتأويل فاسد لا يرضيك، والزيغ إنما هو ثمرة لما يحدث في القلب، بسبب اختيار الإنسان ما يوافق له، فإن كانت تلك الداعية الكفر فهي: الخذلان، والإزاعة، والختم، والطبع، وغيرها، وإن كانت تلك الداعية الإيمان فهي: التوفيق، والرشاد، والهداية، والسداد، والتثبيت، والعصمة وغيرها، ففي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قلت يا رسول الله: ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء؟ فقال: «ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاعه»^(١) ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ إلى الحق والإيمان ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ ﴾ أي امنحنا من فضلك وكرمك ﴿ رَحْمَةً ﴾ واسعة تزلفنا إليك، للثبات على الحق، وسؤال ذلك، إشارة إلى أنه منه تعالى فضل محض، من غير شائبة وجوب عليه تعالى ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ أَوْهَابُ ﴾ الهبة: العطية الخالية عن الأعراض والأغراض، أي أنت المتفضل بالعطاء والإحسان.

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمِ ﴾ لحساب يوم، أو لجزائه، فحذف المضاف تهديداً لما يقع فيه ﴿ لَا رَبِّبَ فِيهِ ﴾ أي لا ينبغي أن يُرتاب في وقوعه، ومقصودهم من هذا كمال افتقارهم إلى الرحمة، والتأكيد لإظهار ما هم عليه من كمال الطمأنينة بالآخرة، فإنها المقصد والمآل ﴿ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخَلَّفُ أَلِيْعَكَادَ ﴾ فإن الإلهية تنافيه، وإظهار الاسم الجليل، لابرار كمال التعظيم، والميعاد مصدر ميمي بمعنى الوعد، أي لا تخلف وعدك.

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات رقم/٣٥١٧/ وقال: هذا حديث حسن.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتَابُونَ وَهُمْ حَشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۖ وَيَسَّ أَلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ آلِ النَّعْتِ ۖ فَمَا تَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجُوا كَافِرًا يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ ۗ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ ۝ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لَمَّا بَيَّنَّ اللهُ تَعَالَى دِينَ التَّوْحِيدِ وَالْحَقِّ، شَرَعَ فِي بَيَانٍ مِنْ كُفْرِهِ، وَالْمَوْصُولِ عَامٍ فِي الْكُفْرَةِ ﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ ﴾ أَي لَنْ تَنْفَعُ أَوْ تَدْفَعُ عَنْهُمْ ﴿ أَمْوَالُهُمْ ﴾ الَّتِي أَعَدُّوهَا لِدَفْعِ الْمَضَارِّ، وَجَلْبِ الْمَصَالِحِ ﴿ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾ الَّذِينَ يَتَنَاصَرُونَ فِي الْأُمُورِ الْمَهْمَةِ وَيَعُولُونَ عَلَيْهِمْ فِي الْمَلَمَاتِ ﴿ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ مِنَ الْإِغْنَاءِ، وَالْمَعْنَى: لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى شَيْئًا مِنْ الْإِغْنَاءِ ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ أَي حَطَبُهَا الَّذِي تُسَعَّرُ بِهِ نَارُ جَهَنَّمَ.

﴿ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ الدَّأْبُ: اسْتِمْرَارُ الشَّيْءِ عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ، يُقَالُ: هُوَ دَائِبٌ يَفْعَلُ كَذَا، إِذَا اسْتَمَرَ فِي فِعْلِهِ، أَي دَائِبٌ حَالٌ هَؤُلَاءِ الْكُفْرَةِ، فِي تَكْذِيبِ الْحَقِّ، وَعَدَمِ النِّجَاةِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، كَحَالِ آلِ فِرْعَوْنَ، مِنْ دَائِبٍ فِي الْعَمَلِ إِذَا كَدَحَ فِيهِ ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ مِثْلُ عَادَ وَثَمُودَ ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ بَيَانٌ وَتَفْسِيرٌ لِدَائِبِهِمْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: كَيْفَ كَانَ دَائِبُهُمْ؟ فَقِيلَ كَذَّبُوا الْخَبَرَ ﴿ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ، وَلَمْ يَجِدُوا مَحِيصًا، فَيَكُونُ هَؤُلَاءِ الْكُفْرَةِ كَحَالِهِمْ أَيْضًا وَالذَّنْبُ: الْإِثْمُ يُسْتَعْمَلُ فِيمَا بَيْنَ الرَّبِّ وَالْعَبْدِ، وَالجَّنَاحُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ، وَبَيْنَ النَّاسِ وَالنَّاسِ ﴿ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ تَهْوِيلٌ لِلْمَوْأَخَذَةِ، وَتَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ لَهُمْ عَذَابًا مُؤَخَّرًا، سِوَى مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ الْعَاجِلِ.

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ رُوي عن ابن عباس أن يهود أهل المدينة، قالوا لَمَّا هُزِمَ الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ بَدْرٍ: هَذَا وَاللَّهِ النَّبِيُّ الْأَمِيُّ، الَّذِي بَشَّرْنَا بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَرَادُوا التَّصَدِيقَ؛ ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَا تَعْجَلُوا حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَى وَقْعَةٍ لَهُ أُخْرَى، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ أَحَدٍ شَكُّوا وَقَالُوا: لَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بِهِ، فَلَمْ يَسْلَمُوا، وَكَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَهْدٌ فَنَقَضُوا ذَلِكَ الْعَهْدَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ آيَةَ: ﴿ سَتُغْلَبُونَ ﴾ عَنْ قَرِيبٍ، فَالْمُرَادُ مِنَ الْمُوصُولِ الْيَهُودَ، وَقِيلَ: آيَةُ فِي مُشْرِكِي مَكَّةَ وَهِيَ مِنْ دَلَائِلِ النَّبُوَّةِ، وَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، فَقَتَلَ وَأَجْلَى ﴿ وَتُحْشَرُونَ ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿ إِلَى جَهَنَّمَ وَيَسَّرَ الْمِهَادُ ﴾ الْمُسْتَقَرُّ، وَهُوَ غَايَةُ حَشْرِهِمْ.

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ عَظِيمَةٌ دَالَّةٌ عَلَى صَدَقِ مَا أَقُولُ لَكُمْ أَنْكُمْ سَتُغْلَبُونَ ﴿ فِي فِتْنَتَيْنِ ﴾ أَيِ فِرْقَتَيْنِ، وَأَجْمَعَ الْمُفْسِرُونَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِمَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَصْحَابَهُ، وَمُشْرِكُو مَكَّةَ ﴿ أَلْتَقَتَا ﴾ أَيِ تَلَاقًا بِالْقِتَالِ يَوْمَ بَدْرٍ ﴿ فِئْتَةٌ تَقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ، لَكِنْ ذَكَرَ مَكَانَهُ مِنْ أَحْكَامِ الْإِيمَانِ، الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَدْحًا لَهُمْ، وَإِذْنًا بِأَنَّهُ الْمَدَارُ فِي تَحْقِيقِ النَّصْرِ ﴿ وَأُخْرَى ﴾ أَيِ فِئْتَةٍ أُخْرَى ﴿ كَافِرَةٌ ﴾ وَإِنَّمَا لَمْ تُوصَفْ هَذِهِ الْفِئْتَةُ لِإِسْقَاطِهِمْ عَنْ دَرَجَةِ الْإِعْتِبَارِ ﴿ يَرَوْنَهُمْ ﴾ أَيِ الْفِئْتَةِ الْآخِرَةِ الْفِئْتَةُ الْأُولَى ﴿ مِثْلِيَّتِهِمْ ﴾ يَرَى الْمُشْرِكُونَ الْمُؤْمِنِينَ مِثْلِي عِدَدَ الْمُشْرِكِينَ ﴿ رَأَى الْعَيْنَ ﴾ رُويَةٌ ظَاهِرَةٌ مَعَايِنَةٌ، رُويَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَوْسٍ أَنَّهُ قَالَ: أُسِرَ الْمُشْرِكُونَ رِجَالًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَسَأَلُوهُ كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: ثَلَاثُمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشْرَةٍ، قَالُوا: مَا كُنَّا نَرَاكُمْ إِلَّا تَضْعَفُونَ عَلَيْنَا!! أَرَاهِمُ اللَّهُ تَعَالَى كَذَلِكَ مَعَ قَلَّتِهِمْ، لِيَهَابُوهُمْ، وَيَجْتَنِبُوا قِتَالَهُمْ، فِئْتَةُ الْكُفَّارِ كَانُوا تِسْعِمِائَةً وَخَمْسِينَ مِقَاتِلًا، وَهُمْ شَاكُو السَّلَاحِ، وَفِيهِمْ صِنَادِيدُ قَرِيشٍ، وَمِنْ الْإِبِلِ سَبْعِمِائَةَ بَعِيرٍ، وَمِائَةَ فَرَسٍ، وَكَانَ عِدَدُ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثُمِائَةً وَثَلَاثَةَ عَشْرٍ رِجَالًا، وَكَانَ مَعَهُمْ سَبْعُونَ بَعِيرًا، وَمِنْ الْخَيْلِ فَرَسَانِ فَقَطْ، وَكَانَ ذَلِكَ الْيَوْمَ فِي السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، سَنَةِ اثْنَتَيْنِ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ ﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ الْبَقِيَّةَ ﴾

من غير توسط الأسباب المعتادة ﴿بَصْرِهِ﴾ بعونه ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من أراد نصرته، كما أيد المؤمنين في بدر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي التقليل أو التكثير، وغلبة القليل على الكثير ﴿لَمَبْرَةٌ﴾ أي عبرة عظيمة ﴿لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ لذوي البصائر والعقول السليمة، التي تستفيد من الدلائل الإلهية.

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّكِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ﴾ بيان لحقارة شأن الحظوظ الدنيوية، وتزهيد الناس فيها، وتوجيه رغباتهم إلى ما عند الله تعالى، إثر بيان عدم نفعها للكفرة، الذين يتعززون بها، والمراد بالناس الجنس، والمزين هو الله تعالى عند الجمهور، وإنما زينها للابتلاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِيَنْبَلُوهُم﴾ الآية، وعن الحسن: المزيّن هو الشيطان، لقوله تعالى: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ والتزيين للشهوات، يُطلق ويراد بها حبها في القلوب، وهو بهذا المعنى مضاف إليه تعالى حقيقة، وأن يراد به الحض على تعاطي الشهوات، وهو مضاف إلى الشيطان، تنزيلاً لوسوسته منزلة الأمر بها، وكلام الحسن محمولٌ على التزيين بالمعنى الثاني ﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ أي المشتهيات، سمّاها شهوات مبالغة، وإيماء إلى أنهم انهمكوا

في محبتها، حتى أحثوا شهوتها، والشهوة نزوع النفس وتوقانها إلى ما تريده ﴿مِنَ الْإِسْكَاءِ﴾ وإنما بدأ بهنّ لأن الالتذاذ بهن أكثر، ولأنهن حبايل الشيطان، وأقرب إلى الافتتان، فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «ما تركتُ بعدي فتنةً هي أضرُّ على الرجال من النساء»^(١) ﴿وَالْبَسِينِ﴾ لأن حبهم فطرةٌ وغريزة، وهم فلذات الأكباد، ولأنهم من ثمرات النساء في الفتن، واللفظ يشمل البنات أيضاً، بطريق التغليب ﴿وَالْقَنْطِيرِ﴾ جمع قنطار وهو المال الكثير ﴿الْمُقَنْطَرَةِ﴾ مأخوذ من القنطار للتأكيد، كقولهم بكرة مبدرة أي منضم بعضها على بعض ﴿مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ بيان للقناطر ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ المعلمة من السومة وهي العلامة، أو المرعية من أسام الدابة إذا أرسلها للمرعى، والخيل جمع لا واحد له من لفظه، كالقوم، والرهط ﴿وَالْأَنْفَكِ﴾ جمع نعم وهي الإبل، والبقر، والغنم ﴿وَالْحَرِثِ﴾ الزرع مصدر، من مفعول ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿مَتَّعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ ما يتمتع بها في الدنيا أياماً قلائل، وهي زائلة وفانية ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَعَابِ﴾ أي المرجع وحسن المنقلب، وهي الجنة دار المتقين.

﴿قُلْ أُوْتَيْتُكُمْ﴾ أمر النبي ﷺ بتفصيل ذلك المجمل للناس، مبالغة في الترغيب أي هل أخبركم ﴿بِخَيْرٍ﴾ أي بما هو خير، وإبهام الخير لتفخيم شأنه، والتشويق إليه ﴿مِنَ ذَلِكَ﴾ أي مما فصل من تلك المستلذات، المزيّنة لكم، لأن نعم الدنيا مشوية بالمضرة، ومنقطعة لا محالة، ونعم الآخرة خالية عن المضار، وباقية ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ يدخل في هذا كل من اتقى الشرك والمعاصي ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ حَوْلِيْنَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي منزهة عن الدنس والقذر الحسّي، والمعنوي ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ أي رضوان عظيم ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ أي رضاء الله تعالى، وقد نبه الله سبحانه بهذه الآية على نعمه، فأدناها نعم الدنيا،

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح ١١٨/٩ ومسلم في الذكر والدعاء رقم ٢٧٤٠.

وأعلاها رضوان الله تعالى، لقوله: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ وأوسطها الجنة ونعيمها ﴿وَاللَّهُ بِصِيرُكُمْ بِالْعَبَادِ﴾ أي بأعمالهم، فيثيب أو يعاقب، وبصير بأحوال الذين اتقوا، ولذا أعدَّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ خبر مبتدأ محذوف كأنه قيل: مَنْ أولئك المتقون؟ فقيل: هم الذين يقولون ﴿رَبِّنَا إِنَّا آمَنَّا بِإِجَابَةِ لَدُعُوتِكَ﴾ ﴿فَأَغْفِرْ لَنَا﴾ إنجازاً لوعدك ﴿ذُنُوبِنَا﴾ المراد بها الصغائر والكبائر ﴿وَقِنَا﴾ بفضلك ﴿عَذَابِ النَّارِ﴾ أي أجرنا من عذاب جهنم.

﴿الصَّابِرِينَ﴾ أي أعني بهم الصابرين على الإيمان، والطاعات، والمصائب ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ قولاً بإخبار الحق، وإخلاص النية ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ المداومين على الإيمان والطاعة، المواظبين على العبادات ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ أموالهم في سبيل الله ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ الأسحار جمع سحر، بفتح الحاء أو آخر الليالي، وخص الأسحار لأنها وقت إجابة الدعاء، لأنه وقت الخلو والنفس أصفى، والروح أجمع، سيما للمتجهدين!!.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي بيّن وحدانيته بنصب الدلائل الدالة عليها، وإنزال الآيات الناطقة بها، عبّر عنه بالشهادة إيداناً بقوته في إثبات المطلوب، فشبهه سبحانه تلك الدلائل، بشهادة الشاهد في البيان ﴿وَالْمَلَكُوتِ﴾ بالإقرار لما عاينوا من عظيم قدرته ﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ أي الأنبياء والعلماء الذين عرفوا وحدانيته بالدلائل القاطعة شهدوا بالإيمان ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ مقيماً للعدل في جميع أموره ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ كرر للتأكيد، أي لا معبود بحق إلا الله ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يعني أنه العزيز الذي لا يُغالب، والحكيم الذي لا يعدل عن الحق.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِي فَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّكَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ ﴾ أي لا دين مرضياً لله تعالى سوى الإسلام، الذي هو التوحيد والتدرُّع بشريعة الإسلام، وهو شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء من عند الله وإخلاص الدين والعقيدة لله تعالى ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ هم اليهود، والنصارى والذي اختلفوا فيه الإسلام، كما يشعر به السياق، والتعبير عنهم بهذا العنوان، زيادة تقبيح لهم، فإن الاختلاف بعد إتيان الكتاب أقبح، ثم اختلافهم في دين الإسلام حيث قال قوم: إنه حق، وقال قوم: إنه مخصوص بالعرب، ونفاه آخرون، واختلافهم في التوحيد، فثلث النصارى، وقالت اليهود عزير ابن الله ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ أي بعدما علموا حقيقة الأمر، وتمكنوا من العلم بالآيات والحجج ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أي ما كان ذلك الاختلاف إلا حسداً بينهم، وطلباً للرياسة لا لشبهة وخفاء في الأمر ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ الناطقة بوحدايته، أو بأي آية كانت من آياته تعالى وبحججه ودلائله، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أي فإنه تعالى سريع الحساب يأتي حسابه عن قريب، ويتم بسرعة.

﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ ﴾ في الدين وجادلوك فيه، بعدما أقيمت الحجج،

والضمير للذين أوتوا الكتاب من وفد نجران ﴿فَقُلْ أَطَعْتُكُمْ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أي أخلصت نفسي، وقلبي، وجملتي لله وحده، وفيه إشارة إلى أن الجدل معهم ليس في موقعه، لأن الجدل إنما يكون في أمرٍ خفي، والذي جادلوا به أمر مكشوف، وهو الدين القويم الذي ثبتت صحته ﴿وَمَنْ أَتَّبَعْنِي﴾ أي أنا وأتباعي على الإسلام ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي وقل لليهود والنصارى عامة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي الوثنيين من العرب ﴿أَسَلَّمْتُمْ﴾ كما فعل المؤمنون، فإنه قد جاءكم من الآيات ما يوجهه، أم أنتم على كفركم، وإصراركم على العناد؟ وفي ذلك تعبير لهم بالمعاندة، وقلة الإنصاف، وتوبيخ بالبلادة ﴿فَإِنْ أَسَلَّمُوا﴾ أي اتصفوا بالإسلام، والدين الحق ﴿فَقَدْ أَهْتَدَوْا﴾ فقد أصابوا الرشد، حيث خرجوا من الضلالة إلى الهدى ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي عرضوا عن قبول الإسلام ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ أي لن يضرك شيئاً فإنك رسول، وما عليك إلا أن تبلغ الرسالة، وقد بلغت ﴿وَاللَّهُ بِصِيرَتِهِمْ بِالْعِبَادِ﴾ أي عالم بجميع أحوالهم، فيجازيهم على أعمالهم، وهو وعدٌ ووعد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي آية كانت، فيدخل فيهم الكافرون بالآيات الناطقة بحقيقة الإسلام ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ سوى الأنبياء عليهم السلام، ولعل تكرير الفعل للإشعار بما بين القتلين من التفاوت ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهو أسلوب تهكم وسخرية.

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المتصفين بتلك الصفات القبيحة ﴿الَّذِينَ حَوَّطَتْ﴾ ضاعت وبطلت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ التي عملوها من البر والإحسان، فلهم اللعنة والخزي ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّاصِرِينَ﴾ يدفعون عنهم العذاب.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ
بَيْنَهُمْ ثُمَّ يُتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن نَّمَسْنَا النَّارَ
إِلَّا آيَاتًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا
جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ
مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ أي التوراة، وفيه تقييح
لصنيعهم، حيث رفضوا حكم التوراة ﴿ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أي إلى كتابهم
المنزل من عند الله وإضافته إلى اسم الله الجليل لتشريفه، وتأکید وجوب
المراجعة إليه ﴿ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ روي أن رجلاً وامرأة من أهل خيبر زنيا،
وكان في كتابهم الرجم، فكرهوا رجمهما فرفعوا أمرهما إلى رسول الله ﷺ
ورجوا أن تكون عنده رخصة، فحكم عليهما بالرجم، فقال علماؤهم ليس
عليهما الرجم، فقال ﷺ بيني وبينكم التوراة فأبيا ﴿ ثُمَّ يُتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾
استبعاد لتوليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع إليه ﴿ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ أي وهم
قوم ديدنهم الإعراض عن الحق، والإصرار على الباطل.

﴿ ذَلِكَ ﴾ التولي والإعراض ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ قَالُوا لَن نَّمَسْنَا النَّارَ
إِلَّا آيَاتًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي خدعهم في زعمهم
ذلك قولهم ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ وقولهم: إن الله وعد يعقوب أن لا
يعذب أبناءه.

﴿ فَكَيْفَ ﴾ رد لقولهم المذكور وإبطال بما سيحقيق بهم من الأهوال
أي فكيف يكون حالهم ﴿ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ ﴾ لجزاء يوم ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ لا

شك في وقوعه ووقوع ما فيه . روي أن أول راية ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار راية اليهود فيفضحهم الله تعالى على رؤوس الأشهاد ثم يأمر بهم إلى النار ﴿ وَوَقَّيْتُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ جزء ما كسبت، من غير نقص أصلاً كما يزعمون وفيه دلالة على أن العبادة لا تحبط، وأن المؤمن لا يخلد في النار، لأن توفية جزاء إيمانه وعمله لا تكون في النار ﴿ وَهُمْ لَا يُظَلَّمُونَ ﴾ .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ ﴾ الميم عوض عن يا، ولذلك لا يجتمعان، وهو من خصائص هذا الاسم وأصله يا الله ﴿ مَلِكِ الْمَلِكِ ﴾ مالك جنس الملك بحيث يتصرف فيه كيفما يشاء إيجاداً وإعداداً، إحياء وإماتة، من غير مشارك فيه وهو نداء ثان أي يا مالك الملك ﴿ تُوْتِي الْمَلِكُ مَن تَشَاءُ ﴾ مفعوله محذوف أي من تشاء إيتاءه إياه ﴿ وَتَنْزِعُ الْمُلُوكَ مِمَّن تَشَاءُ ﴾ أي ممن تشاء نزعه منه وهذا بيان لبعض وجوه التصرف، الذي تستدعيه مالكية الملك، وتحقيق اختصاصها به تعالى، المُلْكُ، والمالُ، والجاه، الكل لا يحصل إلا من الله عز وجل، أما تكثير المال، فقد نرى الرجل في غاية الكياسة، لا يحصل له مع الكد الشديد قليل من المال، ونرى الأبله الغافل، قد يحصل له من الأموال ما لا يُحصى، وأما الظفر فكم شاهدنا من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة، وعند هذا يظهر قوله تعالى: ﴿ تُوتِي الْمَلِكُ مَن تَشَاءُ ﴾ ﴿ وَتُعْزِزُ مَن تَشَاءُ ﴾ أن تعزه في الدنيا ﴿ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ﴾ بالإدبار والخذلان ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ أي ما تفعله الخير كله، لا بقدرة أحد من غيرك تتصرف فيه حسبما تقتضيه مشيئتك، والخير والشر بيده تعالى، فاكتفى بذكر أحد الضدين عن الآخر، لرعاية الأدب، وتبّه على أن الشر بيده، بقوله: ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تعليل لما سبق، والشر غير مقصود بالذات بل إنما قضاها الله تعالى لحكمة ومصلحة، ألا ترى أن الحجامة، والجراحة، وشرب الدواء الكريه ونحوها من الأمور المؤلمة لكونه وسيلة إلى حصول الصحة، يُعدُّ خيراً لا شراً، وكلُّ قضاء الله تعالى من هذا القبيل .

﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ الإيلاجُ: الإدخالُ، واستعير لزيادة النهار في الليل وعكسه، بحسب المطالع والمغارب في أكثر البلدان، ولا يضر تساوي الليل والنهار دائماً عند خط الاستواء، لأنه يكفي الزيادة والنقصان فيهما في الأغلب، أي تنقص من ساعات الليل، وتزيد في النهار، وتنقص من ساعات النهار، وتزيد في الليل ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ إخراج الحي من الميت وبالعكس إنشاء الحيوانات والنباتات من موادها، مثل إخراج الزرع من الحب، والنخلة من النواة، والفرخة من البيضة، والإنسان الحي من النطفة، وعكس ذلك، وقيل: إخراج المؤمن من الكافر، والعالم من الجاهل، وعكسه، والأكثر على الأول، وهو للحقيقة أقرب ﴿ وَتَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي لا يعرف الخلق مقداره، وإن كان معلوماً عنده، ولَمَّا بَيَّنَّ سبحانه أن إعطاء الملك والإعزاز منه تعالى، تَبَّه المؤمنين على أنه لا ينبغي أن يوالوا أعداء الله تعالى.

فقال تقدست أسماؤه:

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً وَيَحذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٢٨) قُلْ إِنْ تُخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبَدُّوهُ يَعْلمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُتَحَضِّراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيداً وَيَحذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبُّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ ﴿نَهَوَ أَنْ يُوَالُوا الْكَافِرِينَ، لِقَرَابَةِ بَيْنِهِمْ، أَوْ لَصَدَاقَةٍ وَنَحْوَهُمَا، حَتَّى لَا يَكُونَ حُبُّهُمْ وَبِغْضُهُمْ إِلَّا فِي اللَّهِ، فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ الْمَحَبَّةَ لِلْقَرَابَةِ خَارِجَةٌ عَنِ الْإِخْتِيَارِ؟ قُلْنَا: الْمُرَادُ هُنَا مَا يَقْتَضِيهِ الْإِسْلَامُ، مِنْ بَغْضٍ وَحُبٍّ شَرْعِيِّينَ، يَصِحُّ التَّكْلِيفُ بِهِمَا، وَقَدْ كَرَّرَ هَذَا النَّهْيَ فِي الْقُرْآنِ، وَحَمَلَ الْمُوَالَاةَ عَلَى مَا يَعْمُرُ الْإِسْتِعَانَةَ بِهِمْ فِي الْغَزْوِ، وَجَوَّزَ بَعْضُهُمُ الْإِسْتِعَانَةَ بِشَرَطِ الْحَاجَةِ وَالْوَثُوقِ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ اسْتَدَلَّ بِالآيَةِ، عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ جَعْلُهُمْ عَمَالًا وَلَا اسْتِخْدَامَهُمْ فِي أُمُورِ الدِّيْوَانِ، وَكَذَا أَدْخَلُوا فِي الْمُوَالَاةِ الْمَنْهِيَّ عَنْهَا السَّلَامَ، وَالتَّعْظِيمَ، وَالتَّوْقِيرَ فِي الْمَجَالِسِ ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي مَتَجَاوِزِينَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْكَافِرِينَ ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أَي اتَّخَاذَهُمْ أَوْلِيَاءَ، وَالتَّعْبِيرُ عَنْهُ بِالْفِعْلِ، لِلإِسْتِهْجَانِ بِذِكْرِهِ ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ الْكَلَامُ عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ، أَي لَيْسَ مِنْ وِلَايَتِهِ أَوْ دِينِهِ، وَتَنْوِينِ شَيْءٍ لِلتَّحْقِيرِ، أَي لَيْسَ فِي شَيْءٍ يَصِحُّ أَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهِ اسْمُ الْوِلَايَةِ، أَوْ الدِّينِ، لِأَنَّ مُوَالَاةَ الْمُتَضَادِّينَ مِمَّا لَا تَكَادُ تَدْخُلُ فِي الْخَاطِرِ، كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

تَوَدُّ عَدُوِّي ثُمَّ تَزْعُمُ أَنَّي صَدِيقُكَ لَيْسَ التَّوَكُّؤُكَ عَنْكَ بِعَازِبِ

التَّوَكُّؤُ: الْحُمُقُ وَالْجَنُونُ. . . وَقَالَ آخَرُ:

إِذَا وَالَى صَدِيقُكَ مِنْ تُعَادِي فَقَدْ عَادَاكَ وَانْقَطَعَ الْكَلَامُ

الموَالَاةُ خِلَافُ الْمَعَادَاةِ وَهِيَ مِنَ الْوَالِي وَهُوَ الْقَرَبُ ﴿إِلَّا أَنْ تَكْتَفُوا﴾ استثناء مفرغ كأنه قيل لا تتخذوهم أولياء في حال من الأحوال، إلا حال اتقائكم ﴿مِنْهُمْ تُقْلَةٌ﴾ أَي إِلَّا أَنْ تَخَافُوا مِنْ جِهَتِهِمْ، أَمْرًا يَجِبُ اتِقَاؤُهُ، فَحِينَئِذٍ يَجُوزُ لَكَ إِظْهَارُ الْمُوَالَاةِ، وَإِبْطَانُ الْمَعَادَاةِ، مَعَ اطمئنان النفس بالعداوة والبغضاء، من غير أن يستحل حراماً من المحرمات، كنقل أخبار المسلمين إليهم، والاستعانة بهم، والآية دليل على مشروعية التقية،

وعرّفوها بمحافضة النفس، والمال، والعرض، من شر الأعداء، وعدّ قوم من باب التقية، مداراة الكفار، والفسقة، والظلمة، وإلانة الكلام لهم، والتبسم في وجوههم لكفّ أذاهم، ولا يعد ذلك من باب الموالاتة المنهي عنها، لحديث «إِنَّا لَنَبِشُّ فِي وَجوه قَوْمٍ وَقُلوبنا لتلعنهم»^(١) ﴿ وَيَحذِرُكُمْ اللهُ نَفْسَكُمْ ﴾ أي عقاب نفسه وفيه تهديد عظيم، حيث علق التحذير بنفسه أي ذاته المقدسة، فلا تتعرضوا لسخطه بموالاتة أعدائه ﴿ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ ﴾ إلى حكمه، وإلى جزائه تعالى فيجازي كل عامل بعمله.

﴿ قُلْ إِنْ تُحِبُّوا مَا فِي صُدُورِكُمْ ﴾ ما في قلوبكم، ومن جملتها موالاتة الكفرة، وإنما ذكر الصدر لأنه وعاء القلب ﴿ أَوْ تُبْذَرُوهُ ﴾ فيما بينكم مما لا يرضي الله ﴿ يَعْلَمُهُ اللهُ ﴾ فيؤاخذكم بذلك ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ هذا من باب إيراد العام بعد الخاص، تأكيداً له وتقريراً ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وبذلك يكمل وجه التحذير، فكأنه سبحانه قال: ويحذركم الله عقابه لأنه متصف بالعلم الذاتي، محيط بالمعلومات كلها، فلا تجترئوا على عصيانه، وموالاتة أعدائه، إذ ما من معصية إلا وهو مطلعٌ عليها، وقادر على العقاب لمن فعلها.

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ من النفوس جزاء ﴿ مَا عَمِلَتْ ﴾ في الدنيا ﴿ مِنْ خَيْرٍ ﴾ وإن كان مثقال ذرة ﴿ مُحَضَّرًا ﴾ تجد جزاءها محضراً بأمر الله ﴿ وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ ﴾ أي وما فعلته ﴿ تَوَدُّ ﴾ وتتمنى يوم ذلك ﴿ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ ﴾ أي بينها وبين ما عملت من السوء ﴿ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ الأمد: غاية الشيء

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب تعليقاً عن أبي الدرداء ٥٢٧/١٠ بلفظ: «إِنَّا لَنَكْشِرُ - أي نبشس - في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم» ويؤيد هذا حديث عائشة: استأذن على النبي رجل، فقال: «ائذنوا له فبشس أخو العشيرة، فلمّا دخل ألان له الكلام، فقلت له: يا رسول الله، قلت ما قلت ثم ألتت له في القول؟ فقال: أي عائشة، إن شرّ الناس منزلةً عند الله، من تركه الناس اتقاء فحشه» رواه البخاري.

ومنتهاه، والمراد هنا الغاية الطويلة، والمسافة البعيدة كما في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَتْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ ﴿وَيَحذِرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ كُرَّرَ للتأكيد والتذكير، ذكره أولاً للمنع عن موالة الكفار، وهنا للحث على عمل الخير، والمنع عن عمل الشر ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ أفاد أن تحذيره تعالى، من رأفته بهم، ورحمته الواسعة. ولمَّا زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله كما قالت اليهود ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ وقالت النصراني: إنما نعبد المسيح حباً لله وقال المشركون: إنما نعبد الأصنام حباً لله.

نزل في حقهم قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ المحبة ميل النفس إلى الشيء بحيث يحملها على ما يقربها إليه، أي قل لهم: إن كنتم حقاً تحبون الله فاتبعوني لأنني رسوله ﴿يُحِبُّكُمْ اللَّهُ﴾ جواب للأمر أي يرض عنكم، فيقرِّبكم من جنابه عزَّ وجل ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي يكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن يتحبَّب إليه بطاعته، واتباع نبيه، فيغفر له ويرحمه.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله تفلحوا وتسعدوا ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عن قبول الطاعة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ لا يرضى عنهم، ولم يقل لا يحبهم لقصد العموم، وللدلالة على أن التولي كفر، فإن سخطه تعالى عليهم بسبب كفرهم، وإن محبة الله تعالى مختصة للمؤمنين، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي، قالوا: ومن أبي؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبي»^(١).

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ٢١٤/١٣.

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ لَمَّا بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى، أَنَّ الدِّينَ الْمَرْضِيَّ عِنْدَهُ هُوَ الْإِسْلَامُ وَالتَّوْحِيدُ، وَأَنَّ اخْتِلَافَ أَهْلِ الْكِتَابِ إِنَّمَا هُوَ لِلْبَغْيِ وَالْحَسَدِ، وَأَنَّ الْفَوْزَ بِرِضْوَانِهِ وَمَغْفِرَتِهِ مَنْوُوطٌ بِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ، شَرَعَ فِي تَحْقِيقِ رِسَالَتِهِ، وَكَوْنِهِ مِنْ أَهْلِ النَّبُوَّةِ، ثُمَّ نَصَّ عَلَىٰ أَنَّ جَمِيعَ الرِّسَالِ دَعَاةٌ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَالْمَرَادُ بِآلِ إِبْرَاهِيمَ: إِسْمَاعِيلَ، وَإِسْحَاقَ وَالأَنْبِيَاءَ مِنْ أَوْلَادِهِمُ الَّذِينَ مِنْ جَمَلَتِهِمُ النَّبِيُّ ﷺ وَالْمَرَادُ بِالعَالَمِينَ أَهْلَ زَمَانٍ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ.

﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ يعني ذرية واحدة، متسلسلة، بعضها يتشعب عن بعض في التقى والصلاح والدين ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ لأقوال العباد ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأعمالهم البادية والخافية، فيصطفي من كان مستقيم القول والعمل، كقوله تعالى ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ ﴾ أي اذكر وقت قول امرأة عمران واسمها «حَنَّة» روي أنها كانت عاقراً لا تلد، فبينما هي في ظل شجرة، إذ رأت طائراً

يطعم فرخه، فحنت إلى الولد وتمنته، فقالت: اللهم إن لك عليّ نذراً إن رزقتني ولداً، أن أتصدق به على بيت المقدس، فيكون من خدمته، فحملت وقالت ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي ﴾ وكان هذا النذر مشروعاً عندهم في الغلمان ﴿ مُعَرَّراً ﴾ مخلصاً للعبادة ﴿ فَتَقَبَّلَ مِنْهُ ﴾ أي ما نذرته، وهذا في الحقيقة استدعاء الولد، إذ لا يتصور القبول بدون تحقق المقبول، وهذا سؤال من لا يريد بما فعله إلا طلب رضا الله تعالى والإخلاص في دعائه ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ ﴾ لجميع المسموعات، ومن جملتها تضرعي ودعائي ﴿ أَلَيْسَ ﴾ بكل المعلومات، التي من زمرتها ما في ضميري من النية.

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا ﴾ أي فلما ولدت المولود وكان أنثى، قالت على وجه التحسر والاعتذار، مظهرة الأسى والحسرة:

﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى ﴾ وهذا الكلام ليس من قبيل الإخبار، بل تحسرت إلى مولاها، لأنها كانت ترجو أن تلد ذكراً ولذلك نذرت تحريره ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ﴾ تعظيم من جهته تعالى لموضوعها، أي والله أعلم بالشيء الذي وضعت، وجعلها وابنها آية للعالمين، وهي غافلة عن ذلك ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ﴾ أي ليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت، فإن دائرة علمها لا تحيط بما فيها من جلائل الأمور، أو اعتذار آخر منها ببيان أن الذكر ليس كالأنثى، في المزية وصلاحية خدمة المتعبدات، فإنهن بمعزل من ذلك ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ وإنما ذكرت ذلك لربها، تقرباً إليه، وطلباً لأن يعصمها ويصلحها ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا ﴾ أجبرها بحفظك، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار، وفي ذكر «ذريتها» رمز إلى طلب بقائها، وطلب التناسل منها، والإعادة: الالتجاء إلى الغير، يقال عاذ فلان بفلان إذا استجار به ﴿ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ أي من شر الشيطان الرجيم، المطرود من رحمة الله ويؤيد هذا ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد،

فيستهلُّ من مسه صارخاً إلا مريم وابنها^(١) فإن الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة.

﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ قبل الله مريم، ورضي بها في النذر مكان الغلام الذَّكَرُ، ﴿رَبِّهَا﴾ مالكا ومبلغها إلى كمالها اللائق ﴿بِقَبُولِ حَسَنِ﴾ أي تقبلها قبولاً حسناً ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ ربَّاهَا تربية كاملة بما يصلحها في جميع أحوالها ﴿وَكَفَّلَهَا زَكْرِيَّا﴾ أي جعله كافلاً لها، وضامناً لمصالحها، وقائماً بأمرها، وضمها إلى خالتها أم يحيى، حتى إذا بلغت مبالغ النساء، بنى لها محراباً في المسجد، أي غرفة في المسجد يصعد إليها بسلم. روي أنه عليه السلام كان يأتيها بطعامها وشرابها، كل يوم، وكان لا يدخل عليها إلا وحده، وإذا خرج أغلق عليها الأبواب، وذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّمَآ دَخَلَ عَلَيْهَا زَكْرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وبالعكس أو نوعاً منها غير معتاد فيتعجب: ﴿قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا﴾؟ أي من أين لك هذا الرزق، الذي لا يشبه أرزاق الدنيا، وهو آتٍ في غير حينه؟ والآية دليل جواز الكرامة للأولياء ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني من الجنة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أن يرزقه ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير لكثرتة، أو بغير استحقاق تفضلاً به.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ﴿٢٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيٰى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَأَحْصٰوْرًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصّٰلِحِيْنَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُوْنُ لِي غُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَأَمْرًاۗتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذٰلِكَ أَلٰهٌ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٣٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايٰتُكَ اَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلٰثَةَ اَيَّامٍ اِلَّا رَمَزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيْرًا وَسِيْحِ بِالْعَسِيِّ وَالْاِبْكٰرِ ﴿٣١﴾ .

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ٦/٣٣٨ وفي تفسير سورة آل عمران، ومسلم في الفضائل رقم ٢٣٦٦ باب فضل عيسى ﷺ.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ أي: في ذلك المكان أو الوقت، روي عن الحسن قال: لما وجد زكريا عند مريم ثمر الصيف في الشتاء وسألها أتى لك هذا؟ قالت: هو رزق من عند الله، طمع زكريا في الولد، وقام واغتسل، ثم ابتهل في الدعاء لله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ أعطني من عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ مباركة صالحة وطلبه بلفظه الهبة لأن الهبة إحسان محض، وهو يناسب ما لا دخل فيه للوالد لكبر سنه ولا للوالدة لكونها عاقر، فكأنه قال: أعطني ذرية من غير طريق معتاد، والمراد من الذرية الولد الواحد ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أراد كثير الإجابة، وهو تعليل لما قبله، وتحريك لسلسلة الإجابة، وفي ذلك اقتداء بجده الأعلى إبراهيم عليه السلام إذ قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (١).

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ المنادي كان جبريل وحده، والجمع للتعظيم ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ أي قائماً في الصلاة ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِبِحَيٍّ﴾ أي بأن الله يبشرك بولادة غلام اسمه يحيى، سمي بذلك، لأن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان والطاعة، حتى لم يقم بمعصية قط، وفيه تلميح أن في الصلاة إجابة الدعوات، وقضاء الحاجات ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ المراد بالكلمة عيسى عليه السلام، وهو المروي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة، وإنما سمي عيسى بذلك، لأنه خُلِقَ بكلمة «كن» من دون سبب عادي، ويحيى أول من آمن بعيسى عليه السلام، وكان أكبر من عيسى بستة أشهر كما قال الضحاك وغيره ﴿وَسَيِّدًا﴾ فسرّه ابن عباس بالكريم، وأصل معنى السيد من يسود قومه، ويكون له أتباع وأنصار، ثم أطلق على كل فائق في الدين، فإنه عليه السلام كان سيد قومه، وله أتباع منهم ﴿وَحَصُورًا﴾ هو

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٩.

الذي لا يقرب النساء، مع القدرة على ذلك، قاله ابن عباس، ومن فسّره بأنه كان عتيباً فباطل، إذ العِنَّة عيبٌ لا يجوز على الأنبياء ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي ناشئاً منهم، وكائناً من عدادهم، والمراد من الصلاح صلاح الدين.

﴿قَالَ رَبِّ﴾ لم يخاطب المَلَك المنادي له، بل جرى على نهج دعائه السابق، مبالغة في التضرع والمناجاة ﴿أَنِّي يَكُونُ لِي عُلْمٌ؟﴾ استبعاد من حيث العادة واستعظام للقدرة، لشك منه، وفيه دلالة على أنه قد أخبر بكونه غلاماً عند التبشير (وأنتي) بمعنى كيف، أي: كيف يكون لي غلام ﴿وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ﴾ أدركني كبر السن، وأثر فيّ وكانت له تسع وتسعون سنة، ولأمراته ثمان وتسعون ﴿وَأَمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ أي لا تلد، من العقر وهو القطع من الأولاد، قال ذلك مع سبق لدعائه، وقوة يقينه بقدرة الله، استعظماً لقدرته تعالى ﴿قَالَ﴾ أي الرب تعالى ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أي ما يشاء أن يفعله، من الأفعال العجيبة.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً﴾ أي علامة أعرف بها الحَبَل، وإنما سألها استعجالاً للسرور، ليتلقى تلك النعمة بالشكر ﴿قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ أن لا تقدر على تكلم الناس، وإنما حبس لسانه عن مكالمتهم خاصة، لتخلص المدة لذكر الله تعالى وشكره، قضاءً لحق النعمة، وإنما خص «الناس» للإشارة إلى أنه غير ممنوع من الذكر، والتسبيح ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾ إشارة بنحو يد، أو رأس، قال جمهور المفسرين: عُقد لسانه عن تكليم الناس خاصة، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾ في أيام الحُبْسة، أي ذكراً كثيراً، أو زماناً كثيراً ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ﴾ من الزوال إلى الغروب ﴿وَالْإِبْكَارِ﴾ من طلوع الفجر إلى الضحى وفي أصل اللغة أبكر: إذا خرج للأمر في أول النهار، ومنه بَكَرَ وابتكر، إذا تكلف الخروج في بداية الصباح.

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِيكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَي نِسَاءِ الْعَالَمِيْنَ ﴿٤٣﴾ يَمْرِيْمُ أَفْتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرُّكَّعِيْنَ ﴿٤٤﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُوْنَ أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُوْنَ ﴿٤٥﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِيكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيْحُ عِيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِيْنَ ﴿٤٦﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِيْنَ ﴿٤٧﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُوْنُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسْسَنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُوْلُ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنُ ﴿٤٨﴾ ۝ .

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِيكَةُ ﴾ كَلَّمُوها شفاهاً كرامة لها، والاصطفاء الأول تقبُّلها من أمها، وتفريغها للعبادة، وإغناؤها برزق الجنة، وتطهيرها عما يُستقذر من النساء، والثاني هدايتها وإرسال الملائكة إليها، وتخصيصها بالكرامات، وتبرئتها مما قذفته اليهود بإنطاق الطفل، وجعلها وابنها آيةً للعالمين، والمراد بالملائكة هو جبريل عليه السلام لقوله تعالى: ﴿ فَأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ ﴿ يَمْرِيْمُ ﴾ وهذه المقالة قبل بشارتها بعيسى عليه السلام، وهي من باب التربية الروحانية، بالتكاليف الشرعية ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ﴾ اختارك حين تقبُّلك من أمك، حيث ربَّاكِ، ورزقك من أرزاق الجنة ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ مما يستقذر من الحيض والنفاس، أو من الذنوب ﴿ وَأَصْطَفَاكِ عَلَي نِسَاءِ الْعَالَمِيْنَ ﴾ قيل المراد بالاصطفائين واحد والتكرير للتأكيد، وقيل: الأول لخدمة بيت المقدس، والثاني لولادة عيسى عليه السلام.

﴿ يَمْرِيْمُ أَفْتِي لِرَبِّكِ ﴾ أي أديمي الطاعة ﴿ وَأَسْجُدِي ﴾ تقديم السجود على الركوع ليقرن بالراعيين، والواو تفيد الاشتراك لا الترتيب ﴿ وَأَرْكَعِي مَعَ الرُّكَّعِيْنَ ﴾ أي ولتكن صلاتك مع المصلين، وكانت رضي الله عنها مقدمة

على الطاعات والعبادات، متبلة إليه عز وجل، مستعدة لفيضان الروح عليها.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق، من قصة حنة أم مريم، وزكريا، ومريم ﴿مِنَ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ التي لم تعرفها إلا بالوحي ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ نلقيه إليك خفياً، والوحي يُطلق على الإشارة الخفية، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ وعلى الإلهام الذي يقع في النفس، وهو أخفى من الإيماء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ ويُطلق على ما يكون غريزة دائمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّخْلِ﴾ وعلى الإعلام في الخفاء كما قال سبحانه: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ ووحي الله على أنبيائه، وهو ما يلقيه عليهم من العلم الضروري الذي يخفيه عن غيرهم، وهو صلة بين عالم الغيب والشهادة، كما قال سبحانه ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْتُمَ اللَّهُ إِلًّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَّرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ..﴾^(١) الآية. وصيغة الاستقبال للإيذان بأن الوحي لم ينقطع ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ عندهم أي عند الذين اختلفوا في تربية مريم، وهو تقرير وتحقيق لكونه وحياً، فإن أمثال هاتيك الحوادث، إما المشاهدة، وإما السماع، وعدم السماع محقق فبقي المعاينة، فنفيت في هذه الآية. ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ وهي قداحهم التي طرحوها في النهر، أو هي الأقلام التي يكتبون التوراة بها اختاروها للقرعة تبركاً ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ روي أن حنة لما حملت مريم إلى المسجد، ووضعتها عند الأحبار، قالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها لأنها كانت ابنة إمامهم، فقال لهم زكريا عليه السلام: إني أحقُّ بها، عندي خالتيها، فقالوا: لا حتى نقرعَ بيننا، فانطلقوا إلي نهر، فألقوا فيه أقلامهم، فارتفع قلم زكريا، ورست أقلام غيره، فتكفلها زكريا ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ

(١) سورة الشورى، آية ٥١.

يَخْصِمُونَ ﴿ في شأنها تنافساً في التكفل بها وتكرير ﴿وما كنت لديهم﴾ للدلالة على نبوته ﷺ، فإنه لم يكن حاضراً في الحالين، فمن أين عرف بذلك؟ لا شك أنه كان بطريق الوحي الإلهي.

﴿ إِذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ ﴾ بدل ﴿إذ قالت﴾ الأولى، وما بينهما اعتراض، وهذا شروع في قصة عيسى عليه السلام ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ﴾ أي بعيسى، والمراد بالكلمة قوله تعالى: ﴿كُنْ﴾ باعتبار أنه خلق من غير أب بل بواسطة «كن» ﴿مِنْهُ﴾ أي كائنة منه تعالى، فالمعنى قال جبريل لمريم يا مريم: إن الله يبشرك من عنده ببشرى، وهي ولد يولد منك، من غير بعل، وذلك الولد ﴿أَسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾ وهو من الألقاب المشرفة، كالصديق، والفاروق، أصله المسيح بالعبرانية، ومعناه المبارك كقوله تعالى: ﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾ ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ بدل من المسيح، وإنما قال ابن مريم إعلماً لها أنه يولد من غير أب، إذ الأولاد تنسب إلى الآباء، ولا تنسب إلى الأم إلا إذا فقد الأب، وفيه رد على النصارى فيما زعموه من بنوته لله تعالى، ومن كان منسوباً لوالدته كيف يكون إلهاً، أو ابن إله؟ ولم يذكر الله امرأةً باسمها في كتابه العزيز إلا مريم لهذه الحكمة ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا﴾ بالنبوة، والتقدم على الناس ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بالشفاعة، وعلو الدرجة، والوجية: ذو الجاه، وهو القوة والمنعة والشرف ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله تعالى يوم القيامة.

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي يكلمهم حال كونه طفلاً، وكهلاً^(١).

(١) ذكر علماء اللغة أن المولود ما دام في الرحم فهو جنين، فإذا وُلد فهو وليدٌ، ثم ما دام يرضع فهو رضيع، وإذا استغنى عن اللبن فهو فطيم، فإذا نبتت أسنانه فهو مشعر، فإذا قارب عشر سنين فهو ناشئ، فإذا قارب الحلم فهو مراهق، فإذا احتلم فهو غلام، فإذا ظهر شاربه فهو فتى، ثم ما بين الثلاثين إلى الأربعين هو شاب، ثم كهلاً إلى أن يبلغ الستين، ثم إذا جاوزها فهو هرمٌ.

والمقصود بيان التسوية بين الكلامين، والمهدد: مقرُّ الصبي حال رضاعه، وكان كلامه في المهد ساعة واحدة، ثم لم يتكلم حتى بلغ أوان الكلام، قاله ابن عباس^(١) وقوله: ﴿وجعلني نبياً﴾ إخبارٌ عما يؤول إليه، وجوّز أن يكون ذلك كرامة لمريم، دالة على براءة ساحتها، وتكليمه كهلاً بعد نزوله من السماء، بناءً على ما ذهب إليه سعيد بن المسيب أنه عليه السلام رفع إلى السماء، وهو ابن ثلاث وثلاثين^(٢) وأنه سينزل إلى الأرض ويبقى حياً فيها مدة طويلة من الزمن، كما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن كعب الأحبار ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وإنما ختم بكونه من الصالحين، لأن مقام الصالحين في مراتب الأنبياء أعظم المراتب، وذكر أحواله المختلفة إرشاداً إلى أنه بمعزل عن صفة الألوهية.

﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ متضرعة ﴿أَنِّي يَكُونُ﴾ أي من أين يكون ﴿لِي وَلَدٌ﴾ على وجه التعجب، واستعظام قدرة الله تعالى ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾؟ أي لم يصبني رجل، والمسيسُ هنا كناية عن الوطاء، وهذا نفي عام للزوج وغيره، ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ إيراد «يخلق» ههنا مكان «يفعل» هناك، لِمَا أن ولادة العذراء، من غير أن يمَسَّ بها بشر، أبداع وأغرب من ولادة عجوز عاقر، فكان الخلق المنبىء عن الاختراع أنسب بهذا المقام، ولذلك عقب ببيان كيفية الخلق فقال: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ والمراد من هذا الجواب، بيان أن الله تعالى لا يعجزه أن يخلق ولدًا بلا أب، لأنه أمر ممكن في نفسه، كيف لا وكثيراً ما نشاهد حدوث بعض الحيوانات على غير سبيل التولد، كحدوث الفأر عن المدر، والحيات عن

(١) كان أوَّلُ كلامه عليه السلام قوله: «إني عبد الله آتاني الكتاب...» وتكلم ببراءة أمه.
(٢) واختلف في زمن رسالته، فقليل: كانت في الصِّبَا، والمشهور أنه كان ابن ثلاثين سنة، فكانت نبوته ثلاث سنين، ثم رفع إلى السماء، وسينزل في آخر الزمان، لإكمال دعوته، فيكسر الصليب، ويقتل الدَّجَال، ويحكم بشريعة الإسلام، كما ورد ذلك في كتب الصحاح، صلوات الله عليه، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

الشعر المتعفن، والعقارب عن الأراضي الملوثة، والذباب عن الباقلاء، إلى غير ذلك.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحَدٍ لَّكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَإِنَّا لَنَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ أي الكتابة وكان عليه السلام أحسن الناس خطأ في زمانه، أو جنس الكتب الإلهية ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي الفقه، قاله ابن عباس، وقيل: سنن الأنبياء ﴿وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ إنما ذكر الإنجيل، لكونه معلوماً عند الأنبياء أنه سينزل، وقيل: علمه موهبة إلهية^(١) ﴿وَرَسُولًا﴾ أي يجعله رسولاً ﴿إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي إلى كلهم، وتخصيص بني إسرائيل لخصوص بعثته إليهم، واليهود في أمره فرقتان: فرقة ترميه بأقبح ما رمت وهم أكثرهم، يرمونه بأنه ابن زنى، وفرقة يصدقون بمواعظه أنه لم يخالف التوراة، ويعتقدون أنه عابد من عباد بني إسرائيل وليس برسول ﴿أَنِّي﴾ أي ناطقاً بأني ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي جئتكم بمعجزة واضحة وإنما قاله وجاء بآيات، لأن الكل دلَّ على شيء واحد، وهو صدقه في الرسالة

(١) كما وهب الله خاتم المرسلين، العلم الواسع دون معلم ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

﴿ آتَىٰ أَخْلُقُ ﴾ أصور وأفدّر ﴿ لَكُمْ ﴾ لأجل تحصيل إيمانكم ﴿ مِّنَ الطَّيْرِ ﴾ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴿ الهيئة: الصورة المهيأة أي مثل صورة الطير، والمراد بالخلق التصوير لا الإيجاد ﴿ فَأَنْفَخُ فِيهِ ﴾ الضمير للهيئة المقدره وذكر الضمير هنا مراعاة للمعنى، كما أنّ في المائدة مراعاة لللفظ ﴿ فَيَكُونُ طَيْرًا ﴾ حياً طياراً كسائر الطيور ﴿ يَا ذَنِ اللَّهُ ﴾ بأمره تعالى، نبه به على أن إحيائه من الله تعالى لا منه، ولكن بسبب النفخ فيه، وفي هذه المعجزة مناسبة لخلقه بنفخة جبريل من غير أب، ذُكِرَ أن بني إسرائيل طلبوا منه على سبيل التعنت - جرياً على عاداتهم مع أنبيائهم - أن يخلق لهم خفاشاً، فلما فعل قالوا: ساحر، ﴿ وَأُتِرِيهِ الْأَكْمَةَ ﴾ والأكمة: هو الذي ولد أعمى ﴿ وَالْأَبْرَصَ ﴾ وهو مرض يحدث في الجسم، يسبب للمريض حكاً مؤلماً، يقال له: الوَضْحُ، ولم تكن العرب تنفر من شيء نفرتها منه، وتخصيص هذين الأمرين، لأنهما ممّا أعيأ الأطباء، وكان الغالب على زمان عيسى الطب، فكان إبراهيمما معجزة له، ودليلاً على صدقه، كما أرى قوم موسى المعجزة بالعصا، حيث كان الغالب عليهم السحر وكان يداويهم بالدعاء بشرط الإيمان ﴿ وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ كرر بإذن الله، دفعاً لتوهم الألوهية، فإن الإحياء ليس من جنس أفعال البشر ﴿ وَأُنْتِشِكُمْ ﴾ أخبركم ﴿ يَمَاتًا كَلُونِ وَمَا تَنْدَخِرُونَ فِي يَوْمَتِكُمْ ﴾ بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكوّن فيها ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي المذكور من الخوارق الأربعة، وهذا من كلام عيسى عليه السلام، حكاة الله تعالى عنه، وقيل: هو من كلام الله ﴿ لآيَةً لَّكُمْ ﴾ دالة على صحة الرسالة دلالة واضحة حيث لم تكن أسباباً عادية كما يفعله الأطباء ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ مصدّقين للحق غير معاندين، وجواب الشرط محذوف أي: إن كنتم موفقين للإيمان انتفعتم بذلك البيان الساطع، بظهور الخوارق من العادات.

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ﴾ أي جئتكم ملتبساً بآية، ومصدّقاً بالتوراة، ومعنى تصديقه الإيمان بجميع ما فيه ﴿ وَلَا أَجَلَ لَكُمْ ﴾ أي

وجتتكم لأحلّ لكم ﴿بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ في شريعة موسى كالشحوم، والتروب والسّمك، ولحوم الإبل، والعمل في السبت، وهو يدل على أن شرعه كان ناسخاً لشرع موسى عليه السلام، وقيل: إن الإنجيل لم يخص أحكاماً، ولا حوى حلالاً وحراماً، ولكنه رموز وأمثال، ومواعظ وزواجر ﴿وَجِئْتَكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ كرر للتأكيد ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يا معشر بني إسرائيل، فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أدعوكم إليه، ثم وضحه بقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ رَفِيٌّ وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ فإنها دعوة الحق، المجمع عليها فيما بين الرسل، أي أطيعوني فيما أدعوكم إليه، وكان عليه السلام يصلي نحو بيت المقدس، ويحرم لحم الخنزير، ويقول بالختان، إلا أن النصارى غيّروا ذلك بعد رفعه، فاتخذوا يوم الأحد بدل يوم السبت وصلوا نحو المشرق، وأحلوا لحم الخنزير، وحملوا الختان على ختان القلب وغير ذلك.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ
الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ رَبَّنَا
ءَامَنَّا بِمَا آزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٨﴾
وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى إِنِّي
مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ
فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ
فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ .

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾ تحقق كفرهم عنده تحقق ما يدرك

بالحواس، وأصل الإحساس الإدراك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة، وقد استعير هنا للعلم بلا شبهة، والمراد بالكفر بإصرارهم عليه، وعتوهم فيه مع العزيمة على إيقاع مكروه به، وقد صح أنه لقي من اليهود - قاتلهم الله - شذائد كثيرة، عن ابن عباس قال: كان اليهود يجتمعون على عيسى ويستهزئون به، ويقولون: يا عيسى ما أكل فلان البارحة؟ وما ادخر في بيته؟ فيخبرهم ويسخرون منه، وكانوا عارفين بأنه المسيح المبشر به، في التوراة، فلما أظهر الدعوة اشتد ذلك عليهم، فأخذوا في أذاهم وكفروا به، أي فلماً أحسَّ كونه صادراً منهم ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ متعلق بمحذوف أي ملتجئاً إلى الله، وقيل معناه: من ينصروني مُنهيّاً نصره إلى الله؟ كأنه طلب منهم أن ينصروه لوجه الله تعالى، لا لغرض آخر ﴿قَالَ الْخَوَارِثِيُّونَ﴾ حوارِيُّ الرجل: خاصته، من الحَوْر وهو البياض الخالص، سمي به أصحاب عيسى لخلوص نيتهم ﴿مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي أنصار دين الله ﴿ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ﴾ أي صدقنا بأن الله ربنا ورب كل شيء ﴿وَأَشْهَدُ﴾ أنت يا عيسى ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ وإنما طلبوا شهادته تأكيداً لإيمانهم، وإيداناً بأن مرمى غرضهم السعادة الأخروية، وكانوا اثني عشر رجلاً.

﴿رَبَّنَا ءَأَمَّنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ﴾ تضرعوا إلى الله عز وجل، مبالغة في إظهار أمرهم ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ في كل ما يأتي به من أمور الدين ﴿فَأَكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي مع الشاهدين بوحدانيتك.

﴿وَمَكُرُوا﴾ أي الذين أحسَّ منهم الكفر من اليهود بأن وكلوا عليه من يقتله غيلة، والمكر في الأصل حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة، ولا يسند إلى الله تعالى إلا على سبيل المقابلة ﴿وَمَكَّرَ اللَّهُ﴾^(١) أي جازاهم

(١) المكر في الأصل الخداع، وإذا نُسب إلى الله سبحانه، فالمراد به استدراج العبد الكافر والعاصي في غفلته، حتى يوقعه في الهلكة، كما قال سبحانه: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ تشبيهاً لذلك بالخداع، فتنبه والله يردعك!!.

على مكرهم، حين رفع عيسى عليه السلام وألقى شَبَهَهُ على من قصد اغتياله، حتى قُتِل. روي أنهم قصدوا قتله، فدخل عيسى بيتاً فيها روزنة - أي طاقة - فرفعه جبريل من تلك الروزنة، فدخل الرجل الخبيث الذي أراد قتله البيت، فألقى الله عليه شَبَهَهُ، فخرج يخبرهم بأنه ليس في البيت، فقتلوه وصلبوه، فلم يلتفتوا إلى قوله، ثم اختلفوا وقالوا: وجهه وجه عيسى، وبدنه بدن صاحبنا، فإذا كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمُنْكَرِينَ﴾ أقواهم مكرماً وأقدرهم على إيصال الضرر للظالم والفاجر من حيث لا يحتسب.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ أي مستوفي أجلك، ومؤخرك إلى أجلك المسمى، عاصماً إياك من قتلهم، أو قابضك من الأرض وزعم النصارى أن الله تعالى، أماته سبع ساعات ثم رفعه إلى السماء والصحيح كما قاله القرطبي أن الله رفعه من غير وفاة ولا نوم، وهو اختيار الطبري، والرواية الصحيحة عن ابن عباس ﴿وَرَأَفَعَكَ إِلَيْنَا﴾ إلى محل كرامتي، ومقر ملائكتي ﴿وَمَطَّهْرُكَ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من سوء جوارهم وقصدهم الخبيث ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾ في التوحيد وهم أهل الإسلام، دون الذين كذبوه من اليهود والنصارى، روي هذا عن قتادة والربيع، وقيل: هم النصارى، والمراد من الاتباع مجرد الاتباع والمحبة ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بدين التوحيد ونبوة عيسى، أي يعلنونهم بالحجة أو السيف في غالب الأمر، ومتبعوه من آمن بنبوته، من المسلمين والنصارى ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ غاية للجعل، وأما بعدها فيفعل الله بهم ما يشاء ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ في الآخرة وغلب المخاطب على الغائبين ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ إثر رجوعكم إليَّ ﴿فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ في أمر الدين.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أتباعك ﴿فَأَعَذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أي ليس لهم ما نعين يمنعونهم من عذابنا في الدارين. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بما أرسلت به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بما

فرضت عليهم، وشرعت لهم ﴿فَيُوقَفِيهِمْ أَجُورَهُمْ﴾ جزء أعمالهم كاملة ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ بل ييغضهم ولا يرحمهم، وإيراد الظلم للإشعار بأنهم بكفرتهم متجاوزون الحدود.

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَبَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهَوٌ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمْ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ .

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى عليه السلام وغيره ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ نخبرك به، وإنما أضاف التلاوة إلى ذاته تعالى لأنه بأمره ﴿مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ أي المحكم الممنوع من تطرق الخلل إليه، أو المشتمل على الحكم، يريد به القرآن.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ أي حاله وشأنه ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ في تقديره وحكمه ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ كشأن آدم عليه السلام، وحاله العجيبة التي لا يرتاب فيها مرتاب، وهذه الآية نزلت في محاجة نصارى وفد نجران، فقد روي أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: مالك تحقّر صاحبنا؟ قال: ما أقول؟ قالوا تقول: إنه عبد الله قال: أجل هو عبد الله ورسوله، فغضبوا وقالوا: هل رأيت أحداً من غير أب، فأبوه هو الله، وهو ابنه لا عبده، فقال ﷺ: إن آدم ما كان له أب ولا أم، فكذا حال عيسى ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ توضيح للتمثيل ببيان وجه الشبه بينهما، فإن إنكار خلق عيسى بلا أب، ممن يعترف بخلق

آدم بغير أب وأم، مكابرةً وعناد ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي صرّ بشراً فصار، وفي الآية دلالة على صحة النظر والاستدلال، ثم إن الظاهر أن عيسى خلقه سبحانه من مريم، بجعلها قابلة لذلك ومستعدة له.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي هذا هو الحق، الذي أخبرتك به من نبأ عيسى، لا ما يزعمه النصارى من ألوهيته ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ خطاب للنبي ﷺ على طريقة التهيج لزيادة الثبات أو لكل سامع، وفي هذا الأسلوب فائدتان: إحداهما: أنه ﷺ إذا سمع مثل هذا الخطاب ليزداد ثباته، فيكون نوراً على نور، والثاني: أن السامع يتنبه بهذا ويتزجر عما يورث الامتراء.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ أي جادلك في شأن عيسى من النصارى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ من الآيات الموجبة للعلم ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿تَعَالَوْا﴾ هلموا بالرأي والعزم ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ أي يدع كل منا ومنكم نفسه، وأعرّة أهله، وفي تقديمهم على النفس، مع أن الرجل يخاطر بنفسه من أجلهم، ويحارب دونهم، للإيذان بكمال أمنه ﷺ عليهم، وأنه لن يصيبهم شائبة من الأذى، لثقتّه بأنه على الحق ﴿ثُمَّ نَبَّهْتُ﴾ أي نتباهل ونتضرع إلى الله أن يهلك الكاذب منا، والبهلة: الدعاء باللعنة ثم شاعت في مطلق الدعاء، كما يقال: فلان يبتهل إلى الله تعالى في حاجته، إلا أنه هنا يفسر باللعن، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ أي نقول لعنة الله على الكاذبين، ولما قرأ ﷺ هذه الآية على وفد نجران، ودعاهم إلى المباهلة، قالوا: نرجع وننظر في أمرنا، ثم نأتيك غداً، فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضناً الحسين، آخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي معه وعلي خلفها^(١)، وقال ﷺ: إذا أنا دعوتُ

(١) لما أنزل الله هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ دعا رسول الله ﷺ علياً، وفاطمة، وحسناً، وحسيناً، فقال: «اللهم هؤلاء أهلي» أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٢١٠/٥.

فأمّنوا، فقال أسقف نجران يا معشرَ النصارى، إنني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يُزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا، فقالوا يا أبا القاسم: رأينا أن لا نباهلك اليوم، قال ﷺ: فإذا أبيتم المباهلة أسلموا، فأبوا فقال ﷺ: أناجزكم أي أحاربكم فقالوا: لا نحارب، ولكن نصالحكم على أن ندفع لكم كل عام ألفي حلة، وثلاثين درعاً من حديد، فصالحهم على ذلك، قال بعض العارفين: إنّ لمباهلة الأنبياء، تأثيراً عظيماً، لاتصال نفوسهم بروح القدس، وتأييد الله إياهم به، وهو المؤثر بإذن الله تعالى، ولذا خاف النصارى، وقبلوا دفع الجزية للنبي ﷺ.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ ما قص من نبأ عيسى ومريم ﴿لَهُوَ الْقَصُّ الْحَقُّ﴾ دون ما ذكروه من أكاذيب النصارى واليهود، والقصص من القصص وهو تتبع الأثر، قصصت الخبر قصاً حدثت به على وجهه ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ صرح فيه بمن المزيدة للاستغراق، تأكيداً للرد على النصارى ﴿وَلَيْتَ اللَّهُ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لا أحد سواه يساويه، في القدرة التامة، والحكمة البالغة، ليشاركه في الألوهية.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي عرضوا عن التوحيد، وقبول الحق الذي جاءك من عند الله، بعدما عاينوا تلك الحجج النيرة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ وعيد لهم، ووضع المظهر ليدل على أن الإعراض عن التوحيد، إفسادٌ للدين، والاعتقاد، المؤدي إلى فساد النفس، بل إلى فساد العالم.

﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ﴾ نزلت في وفد نصارى نجران ﴿تَعَالَوْا﴾ هلموا ﴿إِلَى كَلِمَةٍ﴾ أي كلام، وإطلاقها على ذلك من باب المجاز ﴿سَوَامٍ﴾ عدل،

قاله ابن عباس: أي مستوية ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ لا يختلف فيها الرسل والخلق ﴿وَالآن تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي نوحده بالعبادة، ونخلص فيها ﴿وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا﴾ ولا نجعل غيره شريكاً له، في استحقاق العبادة ﴿وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ولا نقول عزير ابن الله ولا المسيح ابن الله، ولا نطيع الأحرار، فيما أحدثوا من التحريم والتحليل لأن كلاً منهم بشرٌ مثلنا، فكيف يكونون أرباباً؟! ولما نزلت هذه الآية، قال عدي ابن حاتم: «ما كنا نعبدهم يا رسول الله» فقال ﷺ: «أما كانوا يحللون لكم، ويحرمون، فتأخذون بقولهم؟ قال نعم، فقال ﷺ: هو ذاك؟»^(١). قال ابن جريج: أي لا يطع بعضنا بعضاً في معصية الله ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن موافقتكم بعد عرضكم عليهم، فاعلموا أنهم لزمتمهم الحجة، وإنما أبوا عناداً ﴿فَقُولُوا أَشْهَدُوا﴾ أي أنصفوا واعترفوا ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ دونكم، انظروا إلى ما روعي في هذه القصة، من المبالغة في الإرشاد، وحسن التدرج في المحاجة، حيث بين تعالى أولاً أحوال عيسى، وما توارد عليه من الأطوار، المنافية للإلهية، فلما ظهر عنادهم، دُعا إلى المباهلة، بنوع من الإعجاز، ثم لما أعرضوا عنها، دعا إلى ما اتفق عليه عيسى، وسائر الأنبياء من التوحيد، ثم لما ظهر عدم إجدائه أمروا أن يجهروا بالإيمان ﴿قُولُوا بِأَنَا مُسْلِمُونَ﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٦٥) هَتَأْتُمْ هَتُوءًا حَاجِحْتُمْ فِي مَا لَكُمْ عِلْمٌ فَلِمَ تَحَاجُّونَ فِي مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٦٨).

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة التوبة بنحوه ٢٦٠/٥.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ الكلام على حذف المضاف، أي دين إبراهيم، لأن في ذاته ليس فيه مجادلة، روي أنه اجتمع عند رسول الله ﷺ نصارى نجران، وأحبار اليهود، فتنازعوا، فقال الأحبار: ما كان إبراهيم إلّا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إلّا نصرانياً، فأنزل الله تعالى الآية، أي فقل لهم ﴿وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي إن اليهودية والنصرانية، إنما حدثتا بعد نزول التوراة والإنجيل، فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلّا بعد عهده بأزمة متطاوله، فقد كان بين موسى وإبراهيم قرابة ألف سنة، وبين موسى وعيسى ألف وتسعمائة وخمس وعشرون سنة، وقيل ألفا سنة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تتفكرون فتعقلون بطلان قولكم؟.

﴿هَتَأَنْتُمْ﴾ ها، للتنبيه وأنتم مبتدأ، وهؤلاء خبره، نُهبوا بها على حالتهم التي غفلوا عنها، أي أنتم ﴿هَتَأَلَاءَ﴾ الأشخاص الحمقى ﴿حَبَجْتُمْ﴾ أي جادلتهم ﴿فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي في شأن عيسى، وفي التوراة والإنجيل ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾؟ من أمر إبراهيم، ولا ذكر لدين إبراهيم في كتابكم قطعاً ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي والله يعلم الحق، وأنتم جاهلون به ثم كذبهم بقوله:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ تصريح بمقتضى ما قرره من البرهان، من أنّ إبراهيم عليه السلام، ما كان موجوداً عند نزول التوراة والإنجيل، فكيف يكون يهودياً أو نصرانياً؟ ﴿وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا﴾ مائلاً عن العقائد الزائغة ﴿مُسْلِمًا﴾ مؤمناً منقاداً لله تعالى ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بأنهم المشركون، لإشراكهم بالله عزيزاً، والمسيح، ورد لادعاء المشركين أنهم على ملّة إبراهيم.

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ أولى أفعال تفضيل أي أقرب الناس وأحقهم بإبراهيم ﴿لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ من أمته، وكانوا على شريعته في زمانه وبعده ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ أي والنبي محمد ﷺ الذي جاء بالحنيفية السمحة، كما قال

سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا.﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي والمؤمنون من أمة محمد ﷺ فهم الجديرون بهذا الفضل، وكون المتبعين لإبراهيم في زمانه أولى الناس به ظاهر، وكون نبينا ﷺ أولاهم لموافقة شريعته لشريعة إبراهيم^(١)، وكون المؤمنين من هذه الأمة كذلك لتبعتهم له فيما جاء به ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ينصرهم ويجازيهم بالحسنى لإيمانهم، كما هو شأن الولي، ولم يقل «وليهم» تنبيهاً على الوصف الذي يكون الله تعالى ولياً لعباده، وهو الإيمان.

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَو يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ يَتَّهَلَّ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ ﴿٧٥﴾ يَتَّهَلَّ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُونِ الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْفُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفِّرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ حَاجُّوهُ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ الطائفة: فرقة من الناس وأقلها ثلاثة، والمشهور أنها نزلت، حين دعا اليهود حذيفة، وعماراً، ومعاذاً، إلى اليهودية. ﴿لَو يُضِلُّوكُمْ﴾ كلمة لو تفيد التمني^(٢) ﴿وَمَا يُضِلُّوكُمْ﴾ جملة

(١) في الحديث الشريف «إن لكل نبيٍّ ولاةً من النبيين، وإن وليي أبي وخليلُ ربي - يعني إبراهيم - ثم قرأ ﷺ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾» سنن الترمذي ٢٠٨/٥.

(٢) جواب «لو» محذوفٌ تقديره: ودَّتْ إضلالكم لو يضلونكم لسرُّوا وفرحوا بذلك.

حالية جيء بها للدلالة على رسوخ المخاطبين، وثباتهم على ما هم عليه من الدين القويم، وفيه الإخبار بالغيب، إذ لم يتهود مسلمٌ والله الحمد ﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم، وعذابهم يضاعف بضلالهم وإضلالهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك، وفي نفي الشعور عنهم مبالغة في ذمهم.

﴿يَتَاهَلَّ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بما نطقت به التوراة والإنجيل، ودلت على نبوته ﷺ أو لم تكفرون بآيات القرآن وأنتم تعلمون ما يدل على صحتها؟ ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي تعلمون بالمعجزات أن القرآن حق، والإخبار بما يكتُمون في أنفسهم معجز.

﴿يَتَاهَلَّ الْكِتَابَ لِمَ تَلْسُوتُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ بتحريفكم، وإبراز الباطل في صورة الحق ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ نعت الرسول ﷺ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بما تكتُمونه؟

﴿وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ هم رؤسائهم وأجباروهم، قالوا لأتباعهم ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي أظهروا الإيمان بالقرآن المنزل على المؤمنين ﴿وَجَهَ النَّهَارِ﴾ أول النهار ﴿وَءَاكْفُرُوا ءَاخِرُهُ﴾ أي واكفروا به آخره، وقلوا لهم: إنا آمنا به بادي الرأي، من غير تأمل فيه، فوقفنا على خللٍ فيه فرجعنا عنه ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي المؤمنون ﴿يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه من الإيمان به، أو يشكُّون فيه، ظناً بأنكم رجعتم لخللٍ ظهر لكم^(١)، وهذا نوعٌ آخر من تلبيسات اليهود.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا﴾ اتفق المفسرون على أن هذا بقية كلام اليهود، أي وقالوا أيضاً ولا تصدقوا ﴿إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ﴾ وافق ﴿وَدِينَكُمْ﴾ قال الله تعالى:

(١) هذه مكيدة دبَّرها اليهود، ليلبِّسوا على الضعفاء أمر دينهم، وهو أنهم تشاوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا عن الإسلام، ليظن الناس أن في الدين عيباً وخللاً فيرتدوا عنه!!

﴿قُلْ﴾ لهم يا رسول الله ﴿إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ الذي هو الإسلام، وما عداه ضلال، والجملة اعتراض ﴿أَنْ﴾ بأن ﴿يُؤْتِيهِ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ﴾ من الكتاب والحكمة والفضائل، والمعنى لا تقرؤا بأن يؤتى ذلك إلا لمن تبع دينكم ﴿أَوْ﴾ بأن ﴿هَاجِرُونَ﴾ أي المؤمنون يغلبوكم ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يوم القيامة، لأنكم أصبح ديناً، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَلْفُ نَفْسٍ جَاءَتْكَ مِنَ الْكُفْرِ فَتَلْتَمِسُ نِعْمَةً مِّنَ اللَّهِ فَكُلِّمْنَا نِعْمَةً مِّنْهُ بِقَوْلٍ فَهَلْ يَدْرِكُهَا نِعْمَةً مِّنَ اللَّهِ بِإِذْنِهِ فَكَرِهَ اللَّهُ مُخَادَعَهُمْ فَذَسَّلَ اللَّهُ لَهَا سُبُلَهَا وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ كثير الفضل ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بمن هو أهله.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ رد وإبطال لما زعموه، أي يجعل رحمته بالنبوة مقصورة على ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده، وفيه دليل على أن النبوة بالاختصاص لا بالاستحقاق ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ وقيل الفضل نعم الدين والدنيا ويدخل فيه ما يناسب المقام.

﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ شروع في بيان خيانتهم في المال، بعد بيان خيانتهم في الدين ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ﴾ أي ومن أهل الكتاب من بحيث إن تأمنه ﴿بِقِنطَارٍ﴾ أي مال كثير ﴿يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ﴾ كعبد الله بن سلام، استودعه قرشي ألفاً ومائة أوقية ذهباً، فأداه إليه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ﴾ المراد منه مال قليل ﴿لَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ﴾ كفضاحص بن عازوراء اليهودي، استودعه رجل ديناراً فجحده وخانه، وقيل: أشد الناس في الخيانة اليهود لأن مذهبهم أنه يحل لهم أخذ مال من خالفهم في الدين، بأي طريق كان ﴿إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ استثناء مفرغ أي إلا وقت دوامك قائماً على رأسه، مبالغاً في مطالبته، بالتقاضي وإقامة البينة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ أي ذلك الصنيع بسبب

قولهم ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَنَ سَبِيلٌ﴾ أي ليس علينا في شأن من لم يكونوا على ديننا، عتابٌ وذم، وقد ادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم، فقال الله تعالى رداً عليهم: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بادعائهم ذلك ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون، وذلك لأنهم استحلوا ظلم من خالفهم^(١).

﴿بَلَى﴾ إثباتٌ لما نفوه، أي بلى عليهم فيه إثم، لكن ﴿مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ﴾ الذي عهد إليه في التوراة، من الإيمان بالرسول ﷺ وبالقرآن، وبإداء الأمانات إلى من ائتمنه عليها ﴿وَأَتَقَى﴾ أي اجتنب الكفر، والخيانة، ونقض العهد ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي يحبهم ويكرمهم، وهذه الآية من الجوامع، لأن الطاعة محصورة في أمرين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، والوفاء بالعهد مشتملٌ عليهما، والتقوى: هي الاجتناب عن المناهي، وفعل الأوامر الطاعات.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٧)

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ يستبدلون ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ بما عاهدوا الله عليه، من الإيمان، والوفاء بالأمانات ﴿وَأَيْمَانِهِمْ﴾ وبما حلفوا به من قولهم: والله لنؤمنن به ولننصرنه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ متاع الدنيا من الترويس، والارتشاء، ونحو ذلك، أخرج البخاري عن ابن أبي أوفى «أن رجلاً أقام سلعة له في

(١) رُوي أن رجلاً سأل ابن عباس فقال: «إِنَّا نُصِيبُ فِي غَزْوِنَا مِنْ أَمْوَالِ أَهْلِ الذِّمَّةِ: الدِّجَاجَةَ، وَالشَّاعَةَ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَمَاذَا تَقُولُونَ؟ قَالَ: نَقُولُ: لَيْسَ عَلَيْنَا بِذَلِكَ بَأْسٌ، قَالَ: هَذَا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَنَ سَبِيلٌ﴾ إِنَّهُمْ إِذَا آدَوْا الْجِزْيَةَ، لَمْ تَحَلَّ لَكُمْ أَمْوَالُهُمْ، إِلَّا بِطَيْبِ أَنْفُسِهِمْ» انظر تفسير ابن كثير ١/٣٨٢.

السوق، فحلف بالله لقد أُعطي بها ما لم يُعطه، ليوقع فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت هذه الآية^(١)، وأخرج أحمد وابن جرير عن عدي بن عمرة قال: كان بين امرئ القيس، ورجلٍ من حضرموت خصومة، وارتفعا إلى النبي ﷺ فقال للحضرمي: بئنتك وإلا فيمينه!! قال يا رسول الله: إن حلف ذهب بأرضي، فقال ﷺ: «من حلف على يمين كاذبة، ليقطع حق أخيه، لقي الله وهو عليه غضبان»^(٢)، فقال امرؤ القيس: يا رسول الله فما لمن تركها، وهو يعلم أنها حق؟ قال: الجنة، قال: فإني أشهدك أنني تركتها، فنزلت الآية^(٣)، وقيل: إنها نزلت في أحبار حرفوا التوراة، وحكم الأمانات، ولا مانع من تعدد سبب النزول ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات القبيحة ﴿لَا خَلْقَ﴾ لا نصيب ﴿لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ من نعيم الجنة، بسبب ذلك الظلم والفجور ﴿وَلَا يُكَمِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ بما يسرهم كلام أنس وملاطفة، والظاهر أنه كناية عن غضبه تعالى عليهم لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فَإِنَّ مِنْ سَخِطَ عَلَى غَيْرِهِ، أَعْرَضَ عَنْهُ، وَعَنِ التَّكَلُّمِ مَعَهُ، وَالِاتِّفَاتِ نَحْوَهُ وَفِي قَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تهويل للوعيد ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يطهرهم من الآثام بالمغفرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على ما فعلوه من المعاصي.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب ﴿لَفَرِيقًا﴾ لجماعة هم المحزفون

- (١) أخرجه البخاري في تفسير سورة آل عمران ٢١٣/٨.
(٢) أخرج طرفاً منه البخاري في كتاب التفسير بلفظ: «من حلف على يمين صبر، يقطع بها مال امرئ مسلم، وهو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان».
(٣) انظر كامل القصة في تفسير ابن كثير ٣٨٣/١.

ككعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وحَيِّ بن أخطب ﴿ يَلُؤْنَ أَلْسِنَتَهُمْ بِأَلِكْتَابٍ ﴾ يفتلون بقراءته، فيميلونها عن المنزل إلى المحرّف أو يعطفونها بشبه الكتاب والليّ: الفتل، لويثُ الحبل، فتلته، ولوى رأسه أماله، والمراد تحريفهم له، كآية الرجم، وصفة النبي ﷺ^(١) ﴿ لِتَحْسَبُوهُ ﴾ أي المحرّف ﴿ مِنْ أَلِكْتَابٍ ﴾ أي التوراة ﴿ وَمَا هُوَ مِنَ أَلِكْتَابٍ ﴾ والحال أنه ليس منه في نفس الأمر من كلام الله ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ كذباً ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ تأكيد لقوله: ﴿ وما هو من الكتاب ﴾ وبيانٌ لأنهم يزعمون ذلك تصريحاً لا تعريضاً ﴿ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ والحال أنه ليس من عند الله في اعتقادهم أيضاً ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ تأكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله، والتعمد فيه.

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ .

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ أي ما صحَّ، وما استقام لأحد، وإنما قال «لبشر» إشعاراً بعلّة الحكم، فإن البشرية منافية للأمر الذي أسنده الكفرة، إلى الأنبياء عليهم السلام ﴿ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ ﴾ الأمر بالتوحيد، والناهي عن الشرك ﴿ وَالْحُكْمَ ﴾ الحكمة التي ينطق بها النبيون ﴿ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ أي الرسالة ﴿ ثُمَّ يَقُولَ ﴾ ذلك البشر، بعدما شرفه الله تعالى بما ذكر، وعرفه الحق، وأطلعه على شؤونه العالية ثم يقول: ﴿ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

(١) المراد أنهم يفتلون ألسنتهم ليميلوها عن الآيات المنزلة إلى العبارات المحرّفة، فهم يصرفون الكلام من جانب الخير إلى جانب الشر، ويتلاعبون في كلام الله عزّ وجل بالليّ والتحريف.

تكذيب ورد على عبدة عيسى، عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظي والسيد النجراني: قالوا يا محمد أتريد أن نعبدك، ونتخذك رباً؟ فقال ﷺ: معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غير الله، فما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني، فنزلت هذه الآية^(١) ﴿وَلَكِنْ﴾ يقول: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ أي يقول: كونوا ربّانيّين، والربانيّ منسوب إلى الربّ، وهو الكامل في العلم والعمل، والألف والنون للمبالغة، ﴿يَمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَيَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ الباء للسببية، أي كونوا كذلك بسبب مثابرتكم على تعليمكم الكتاب، ودراستكم له، والغرض أن لا ينفك العلم عن العمل، إذ لا يُعتدُّ بأحدهما بدون الآخر.

﴿وَلَا يَأْمُرْكُمْ﴾ عطف على ثم يقول: أي وما كان لبشر أن يستنبهه الله تعالى، ثم يأمر الناس ﴿أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَيِّكَةَ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا﴾ أي وما كان له أن يأمركم بعبادة غير الله، ملائكة كانوا أو أنبياء، لأن مهمة الرسول الدعوة لعبادة الله وحده ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾؟ لا ينبغي له هذا.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ- وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ أي اذكر وقت ذلك، ومعنى ميثاق النبيين ما وثقوه على أنفسهم أن يؤمن كل رسول بمن يأتي بعده من الأنبياء، وينصره، وإن لم يدركه أن يأمر قومه بنصرته، وقيل: إنما أخذ الميثاق من النبيين في أمره ﷺ خاصة، ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس

(١) أخرجه ابن إسحاق عن ابن عباس، وانظر تفسير ابن كثير ١/٣٨٥.

قال: لم يبعث الله تعالى نبياً إلا أخذ العهد عليه في محمد ﷺ لئن بعثه الله وهو حي، ليؤمننَّ به ولينصرنه، فيأخذ العهد على قومه^(١)، ثم تلا الآية ﴿لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابِ وَحْيِكَ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ أي لتصدقنَّ به ولتنصرنه ﴿قَالَ﴾ الله تعالى بعد أخذ الميثاق للتأكيد ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ بما ذكر ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي أقبلتم عهدي، وسمي إصراً لأنه يشدُّ ويعقد ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ أي فليشهد بعضكم لبعض بالإقرار ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي على إقراركم هذا.

﴿فَمَنْ تَوَلَّى﴾ أعرض عما ذكر من العهد والميثاق ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ التوكيد بالإقرار، ونقض العهد بعد قبوله ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفٰلسِقُونَ﴾ المتمردون، الخارجون عن طاعة الله عزَّ وجلَّ.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ عَلَىٰ إِبْرٰهِيْمَ وَإِسْمٰعِيْلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ .

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾؟ عطف على الجملة المتقدمة أي يتولون فيبغون غير دين الله، بعد أخذ هذا الميثاق المؤكد؟ ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ﴾ جملة حالية، أي كيف يطلبون غير دينه، والحال وله أسلم ﴿مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الملائكة، والإنس، والجان ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي طائعين ومكرهين، لا يُقال كيف قيل أسلم، مع أن الأكثر من الإنس والجن كفاراً؟

(١) تفسير ابن كثير ٣٨٦/١.

لأن كل من فيهما منقادٌ وخاضعٌ لجلال الله، في تكوينه ووجوده، والطوعُ: الانقيادُ بسهولة، والإكراه ما كان ذلك بمشقة وإباءٍ من النفس ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ وفيه وعيد أي فيجازيهم على أعمالهم.

﴿ قُلْ ءَأَمِنَّا ﴾ أمر رسول الله ﷺ بأن يخبر عن نفسه وعن من معه بالإيمان ولذا وحد الضمير في قل وجمع في آمنة ﴿ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ وهو القرآن الكريم لما أنه منزل عليهم أيضاً بتوسيطه ﷺ وإنما قدمه على المنزل على سائر الرسل، لأنه المعرف له، والعُمدةُ عليه ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ أي مقرون له بالالوهية والربوبية، تؤمن بجميع رسل الله، ولا تؤمن بالبعض ونكفر بالبعض.

﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ﴾ غير التوحيد والانقياد لحكم الله تعالى، كدأب المشركين، والمدعين للتوحيد مع إشراكهم من أهل الكتاب ﴿ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُمْ ﴾ ذلك، بل يردُّ أشدَّ رد ﴿ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ الواقعين في الخسران، وهو حرمان الثواب، وحصول العقاب، وأصل الخسران ذهاب رأس المال، والمراد به هنا تضييع الأعمال الصالحة، لأن الله لا يقبل عملاً من كافر.

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيَتْهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلٰٓئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ .

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ ﴾ إلى دين الحق ﴿ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾ هم جماعة من المنافقين، أبو عامر وأصحابه في اثني عشر رجلاً لحقوا بقريش

فنزلت الآية فيهم، وهو استبعاد لأن يهديهم الله عز وجل، فإن الحائد عن الحق، منهمك في الضلال، بعيد عن الرشاد ﴿وَشْهَدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾ أي وقد شهدوا أن الرسول حق لا شك في رسالته ﴿وَجَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي الشواهد كالقرآن، وسائر المعجزات الدالة على صحة نبوته ﷺ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لا يوفق إلى الحق ما داموا مختارين الكفر ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بوضع الكفر موضع الإيمان.

﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي جزاؤهم على كفرهم، اللعنة من الله والملائكة، وجميع الخلائق، مؤمنهم وكافرهم، وبرّهم وفاجرهم، فالمراد به العموم، لأن الكافر أيضاً يلعن منكر الحق، ولكنه لا يعرف الحق.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ في اللعنة أو النار وإن لم يجر ذكره لدلالة الكلام ﴿لَا يَخَفُّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد الارتداد ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ وأصلحوا ما أفسدوا، وقيل: أي أصلحوا باطنهم مع الحق، وظاهرهم مع الخلق، بالعبادات والطاعات ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يقبل توبتهم، ويغفر لعصيانهم، ويتفضل عليهم باللطف والإحسان.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ﴿٩١﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ قال عطاء: نزلت في اليهود، كفروا بعبسى والإنجيل، ثم ازدادوا كفراً برسول الله ﷺ والقرآن ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ الثابتون على الضلال.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا ﴾
 ملء الشيء مقدار ما يملؤه ﴿ وَلَوْ آفَتَدَىٰ بِهِ ﴾ أي فلن يقبل من أحدهم
 فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، والكلام ورد على سبيل الفرض والتقدير،
 لأنهم لا يملكون شيئاً في الآخرة، وقيل: معناه لو بذله في الدنيا ثم مات
 على كفره لم ينفعه ذلك ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ إشارة إلى من مات على الكفر ﴿ لَهُمْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم ﴿ وَمَالُهُمْ مِنْ نَّصِيرِينَ ﴾ في دفع العذاب عنهم أو تخفيفه.

﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ
 عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ ﴾ البرُّ: الإحسانُ وكمالُ الخير، أي لن تبلغوا حقيقة
 البر، الذي هو كمال الخير، أو لن تنالوا الرضى، والجنة ﴿ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا
 تُحِبُّونَ ﴾ وقيل: لن تنالوا ثواب البر، حتى تنفقوا من أفضل أموالكم، مما
 تحبونه وتشتهونه لأنفسكم، وكان السلف إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله تعالى،
 روي عن نافع أنه قال: كان ابن عمر يشتري الحلوى يتصدق بها، فنقول
 له: لو اشتريت لهم طعاماً كان أنفع لهم فيقول: أنا أعرف الذي تقولونه،
 ولكن سمعت الله تعالى يقول: ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾
 وإن ابن عمر يحب السكر والحلوى ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي من أي شيء
 كان محبوباً أو غيره ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ فيجازيكم بحسبه، وفيه تحذير
 من إنفاق الرديء، والترغيب في إنفاق الجيد المحبوب.

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ
 نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَإِنَّا نُنزِّلُهَا وَإِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ ﴾ ﴿ ١٢٦ ﴾ فَمَنْ آفَتَدَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
 الظَّالِمُونَ ﴿ ٩٤ ﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
 الْمُشْرِكِينَ ﴿ ٩٥ ﴾ .

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ ﴾ أي المطعمات ﴿ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي حلالاً لهم، وهو مصدر يستوي فيه الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث قال الله تعالى: ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ روي أنه حين قال رسول الله ﷺ: أنا على ملة إبراهيم، قالت اليهود: كيف وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها؟ فقال ﷺ: كان ذلك حلالاً لإبراهيم، فأنزل الله هذه الآية تصديقاً له ﷺ وتكذيباً لهم ﴿ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ وكان قد حرم لحوم الإبل وألبانها، وسبب تحريم ذلك، ما روي عن ابن عباس أن يعقوب كان به «عِرْقُ النَّسَا» فنذر إن شفاه الله ألا يأكل أحب الطعام إليه، فحرمها على نفسه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل، وأحبّ الشراب ألبانها ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْزَلَ التَّوْرَةُ ﴾ أي من قبل إنزالها مشتملة على تحريم ما حرم عليهم، لظلمهم وبغيهم، عقوبة وتشديداً، بقوله تعالى: ﴿ فَبَطَلْهُمْ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا ﴾ الآية. ﴿ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ ﴾ أمر له ﷺ بأن يحاجهم بكتابتهم، الناطق بصحة ما يقول، في أمر التحليل والتحريم ﴿ فَأَتَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي في دعواكم. روي أنه ﷺ لما قال لهم ذلك؛ لم يجروا أن يخرجوا التوراة وبهتوا، ورجعوا صاغرين.

﴿ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ أي اخترع ذلك، بزعمه أن التحريم كان على الأنبياء وأممهم، قبل نزول التوراة، ومعنى الافتراء: الابتداع والاختلاق، والكذب إذا كان عن قصد يكون إفكاً، والإفك إذا كان على الغير يكون افتراءً، والافتراء إذا كان بحضرة المقول يكون بهتاناً، وهو الكذب الذي يبهت سامعه أي يدهش له، وهو أفحش الكذب ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ من بعد ما لزمتهم الحجة ﴿ فَأُولَئِكَ ﴾ أي المفتررون ﴿ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ لأنفسهم، ولأشيعاهم بإضلالهم، وإنما قيّد بالبعدية للدلالة على كمال القبح.

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ﴾ أي ثبت صدقه تعالى، في أن كل الطعام كان حلالاً

لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي ملة الإسلام التي هي في الأصل ملة إبراهيم، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فيه إشارة إلى أن اتباعه واجب، في التوحيد، والاستقامة في الدين، وتعرض بشرك اليهود والنصارى.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أي أول مسجد بني في الأرض لعبادة الله، هو المسجد الحرام الذي بناه أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، روي عن ابن جريج قال: بلغنا أن اليهود قالت بيت المقدس أعظم من الكعبة، لأنه مهاجر الأنبياء، ولأنه في الأرض المقدسة فنزلت الآية، والمراد بالأولية بحسب الزمان. أخرج الشيخان عن أبي ذر قال: سئل رسول الله ﷺ عن أول بيت وُضِعَ للناس، فقال: «المسجد الحرام، ثم بيت المقدس...» (١) الحديث. ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ أي البيت الذي ببكة، وهي لغة في مكة، من بكه إذا دقه، فإنها تدق أعناق الجبابة، أو لآزدحام الحجيج فيها ﴿مُبَارَكًا﴾ أي كثير الخير والنفع، لمن حجه واعتمره، وطاف حوله ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ هادٍ لهم إلى الجنة دار المتقين.

﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أي فيه علامات واضحة كثيرة، تدل على شرفه

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/ ٢٩٠ ومسلم في المساجد رقم ٥٢٠ ولفظه عن أبي ذر قال: «سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وُضِعَ في الأرض؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون عاماً، ثم الأرض لك مسجد، فأينما أدركتك الصلاة فَصَلِّ».

وفضله على سائر مساجد الأرض ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي منها مقام إبراهيم، ومن الآيات أثر القدم في الصخرة، وإبقاؤه مع كثرة الأعداء ألوف السنين، ومنها زمزم والحطيم، والصفاء والمروة ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ هذه آية أخرى، وهي أمن الداخل للحرم بدعوة إبراهيم ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال: «كان الرجل في الجاهلية يقتل الرجل، ثم يدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول أو أبوه، فلا يحركه» وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لو وجدت فيه قاتل الخطأ ما مسسته حتى يخرج منه» وقال أبو حنيفة: من لزمه القتل في الحل، فالتجأ إلى الحرم، لم يتعرض له، إلا أنه لا يؤوى، ولا يطعم ولا يُسقى، حتى يضطر إلى الخروج ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ أي استقر له عليهم فرض الحج، أي قصده وزيارته، فيجب الحج في أول أوقات الإمكان ويكره تأخيره تحريماً، لقوله ﷺ: «يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا»^(١) ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ أي فرض الحج على القادر المستطيع له، والقدرة إما بالبدن أو بالمال، أو بهما، ويؤيده ما أخرجه الدارقطني عن جابر بن عبد الله قال: «لما نزلت هذه الآية، قام رجل فقال يا رسول الله: ما السبيل؟ قال: الزاد والراحلة»^(٢) ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ يراد بـ «مَنْ كَفَرَ» من لم يحج، تشديداً وتأكيذاً لوجوبه، ولقد حازت الآية الكريمة كمال الاعتناء بأمر الحج، حيث أوثرت صيغة الخبر الدالة على التحقق، وأبرزت في صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستمرار، وسُلك فيها مسلك التعميم، ثم التخصيص، والإبهام ثم التبيين، لما في ذلك من مزيد تحقيق وتقرير، وعبر عن تركه بالكفر وجعل

(١) أخرجه مسلم رقم ١٣٣٧ وتمتته «فقال رجل: أفي كل عام يارسول الله؟ فسكت، حتى قالها الرجل ثلاثاً، فقال ﷺ: ذروني ما تركتكم، ولو قلت: نعم لوجبت، ولما استطعتم».

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الحج رقم ٨١٣ وله طُرُق يقوي بعضها بعضاً.

جزاءه استغناؤه تعالى، المؤذن بشدة المقت، وعظيم السخط، تنبيهاً على وجوبه وفرضيته على المؤمنين.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾
 قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ
 شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ۝ .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ هم اليهود والنصارى، خوطبوا بها مبالغة في تقييح حالهم، في كفرهم بالقرآن الكريم، لأن معرفتهم بالآيات أقوى ﴿ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ السمعية والعقلية الدالة على صدق رسول الله تعالى فيما يدعيه؟ والاستفهام للتوبيخ، والإشارة إلى تعجزهم عن إقامة العذر في الكفر، كأنه قيل: هاتوا عذرکم إن أمکنکم ﴿ وَاللَّهُ شَهِيدٌ ﴾ وإظهار لفظ الجلالة لتربية المهابة ﴿ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي والحال أنه تعالى مطلع على أعمالکم، فيجازيکم عليها.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ أمر ﷺ بتوبيخهم والتكرير للمبالغة ﴿ لِمَ تَصُدُّونَ ﴾ أي تصرفون، والصدُّ: المنع، يقال: صدَّته أي منعه وأهل الكتاب كانوا يعرضون عن سلوك سبيل الله، ويضلون الناس عنها ﴿ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الطريقة الموصلة إلى الله تعالى، وهي طريقة الإسلام ﴿ مَن ءَامَنَ ﴾ كانوا يمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم، ويحتالون لصدِّهم عنه ﴿ تَبِعُونَهَا ﴾ أي السبيل ﴿ عِوَجًا ﴾ أي باغين، طالبين لها اعوجاجاً، بأن توهموا أن فيه عوجاً عن الحق، عوجاً بكسر العين في الدين^(١) ﴿ وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ﴾ أي عالمون بأنها سبيل الله، والصدُّ عنها ضلال وإضلال ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وعيد لهم، ولما كان المنكر في الآية الأولى كفرهم، ختمها بقوله: ﴿ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ ولما كان في هذه صدِّهم،

(١) العِوَجُ: بكسر العين يكون في الدين والطريق، وبالفتح «عَوَج» في الخِلْفَةِ، يقال: في ساقه عَوَجٌ، وفي دينه عِوَجٌ، وانظر الصحاح للجوهري.

قال الله: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ ثم نهى الله تعالى المؤمنين عن اتباع هؤلاء الصادقين فقال عز وجل:

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ .

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ خطاب للأَنْصَارِ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ سَبَبُ النُّزُولِ، وَيَدْخُلُ فِيهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي عُمُومِ اللَّفْظِ، خَاطَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ، بَعْدَ مَا أَمَرَ رَسُولَهُ ﷺ بِخُطَابِ أَهْلِ الْكِتَابِ، إِظْهَارًا لِجَلَالَةِ قَدْرِهِمْ، وَإِشْعَارًا بِأَنَّهُمْ هُمُ الْأَحْقَاءُ بِأَنْ يَخَاطَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَسَبَبُ نَزُولِهَا مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ وَجَمَاعَةٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ قَالَ: «مَرَّ شَمَّاسُ بْنُ قَيْسٍ الْيَهُودِي، عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، مِنَ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ، فِي مَجْلِسٍ يَتَحَدَّثُونَ، فَغَاطَهُ مِنْ أَلْفَتِهِمْ، فَأَمَرَ شَابًا مَعَهُ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ: اجْلِسْ مَعَهُمْ وَذَكِّرْهُمْ يَوْمَ بَعَاثَ - وَكَانَ هَذَا الْيَوْمَ يَوْمًا اقْتَتَلَتْ فِيهِ الْأَوْسُ وَالخَزْرَجُ - وَأَنْشَدَهُمْ بَعْضُ مَا كَانُوا يَتَقَوْلُونَ فِيهِ مِنَ الْأَشْعَارِ، فَفَعَلَ فَتَكَلَّمَ الْقَوْمَ عِنْدَ ذَلِكَ، وَتَنَازَعُوا وَغَضِبُوا وَقَالُوا: السَّلَاحُ، السَّلَاحُ، فَاجْتَمَعَ مِنَ الْقَبِيلَتَيْنِ خَلْقٌ كَثِيرٌ، فَوَصَلَ الْخَبَرَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، فَجَاءَ فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَدْعُوا الْجَاهِلِيَّةَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ، بَعْدَ أَنْ هَدَاكُمْ اللَّهُ إِلَى الْإِسْلَامِ؟» فَعَرَفَ الْقَوْمَ أَنَّهَا نَزْغَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَكَيْدٌ لَهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَالْقُوا السَّلَاحَ مِنْ أَيْدِيهِمْ، وَبَكَوْا وَاسْتَغْفَرُوا، وَعَانَقَ الرَّجَالُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، ثُمَّ انْصَرَفُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُطِيعِينَ، قَدْ أَطْفَأَ اللَّهُ عَدُوَّ اللَّهِ شَمَّاسَ فَتَزَلَّتْ الْآيَاتُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(١) قَالَ جَابِرٌ: مَا رَأَيْتَ

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣٩٧/١ وصفوة التفاسير ٢١٧/١.

يوماً أقبح أولاً، وأحسن آخراً من ذلك اليوم، والمراد من الفريق، بعض غير معين، وتعليق الرد بطاعة فريق منهم، للمبالغة في التحذير عن طاعتهم، وإيجاب الاجتناب عن مصاحبتهم بالكلية، وقوله تعالى: ﴿يُرَدُّوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ فيه تثبيت المؤمنين وإظهار لشناعة الكفرة المجرمين.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ استفهام إنكاري وتعجيب من حالهم بعد أن اجتمع لهم من الأسباب الداعية إلى تثبيت الإيمان، الصارفة لهم عن الكفر ﴿وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ﴾ الدالة على توحيده، ونبوة رسوله ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ ﷺ يعلمكم الكتاب، ويزكيكم، بتحقيق الحق وإزالة الشبهة، والمراد استبعاد أن يقع منهم الكفر، وعندهم من الدواعي ما يأباه ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ الاعتصام التمسك أي ومن يتمسك بدينه، أو يلتجئ إليه في جميع أموره، وأصل العصمة الامتناع من الوقوع في آفة، وفيه حث لهم في الالتجاء إلى الله في دفع شر الكفار ﴿فَقَدْ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أفاد الكلام تحقق الهدى، حتى كأنه حصل، والتنوين للتفخيم، والصراط المستقيم وإن كان هو الدين الحق، والاهتداء إليه هو الاعتصام به، لكن أبرز في معرض الجواب، للحث على الاستمسك به والترغيب فيه، أخرج الحكيم الترمذي عن الزهري قال: أوحى الله تعالى إلى داود، ما من عبد يعتصم بي من دون خلقي، وتكيده السموات والأرض، إلا جعلت له من ذلك مخرجاً، وما من عبد يعتصم بمخلوق من دوني، إلا قطعت أسباب السماء بين يديه، وأسخت الأرض من تحت قدميه.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١١٦﴾
وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ
أَعْدَاءً فَآلَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبِرُوا بِنِعْمَةِ إِخْوَانِكُمْ وَعَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ
النَّارِ فَانقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١١٧﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ كرر الخطاب بهذا العنوان تشرifa لهم ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ حق تقواه، وما يجب منها هو استفراغ الوسع في القيام بالواجب، والاجتناب عن المحارم، كقوله تعالى: ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ وعن ابن مسعود رضي الله عنه: هو أن يُطاع فلا يُعصى ويُشكر فلا يُكفر، ويُذكر فلا ينسى، وفي هذا الأمر تأكيد للنهي عن طاعة أهل الكتاب ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أي مخلصون نفوسكم لله تعالى، أي لا تموتون على حال من الأحوال، إلا حال تحقق إسلامكم، وثباتكم عليه، وذكر بعض المحققين، أن الإسلام هنا لا يُراد به الأعمال، بل الإيمان القلبي، لأن الأعمال حال الموت مما لا تكاد تتأدى، ولذا ورد في دعاء صلاة الجنائز «اللهم من أحييته منّا فأحيه على الإسلام، ومن توفيته منّا فتوفه على الإيمان».

﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ ﴾ بدين الإسلام، أو بكتابه، روي ذلك بسند صحيح عن ابن مسعود، لحديث «كتابُ الله هو حبلُ الله الممدودُ، من السماء إلى الأرض»^(١) استعار له الحبل، من حيث إن التمسك به، سبب النجاة من الردى، كما أن التمسك بالحبل، سببٌ للسلامة عن التردي في الهلاك ﴿ جَمِيعًا ﴾ أي مجتمعين عليها ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ ولا تتفرقوا عن الحق، بوقوع الاختلاف بينكم كما كنتم في الجاهلية ﴿ وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ التي من جملتها الهداية والتوفيق للإسلام، المؤدي إلى التآلف، وزوال الشقاق والخلاف ﴿ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً ﴾ أي في الجاهلية ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ بالإسلام، وقيل: أراد سبحانه ما كان بين الأوس والخزرج، التي تناولت العداوة بينهما مائة وعشرين سنة ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ متحابين مجتمعين على الأخوة في الله ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ ﴾ أي وكنتم على

(١) هذا طرف من حديث مشهور أخرجه مسلم في فضائل الصحابة رقم ٢٤٠٩ والترمذي في المناقب.

طرف حفرة من جهنم، إذ لم يكن بينكم وبينها إلا الموت، والشفاء: هو الطرف في اللغة، أي وكنتم مشرفين على أن تقعوا في نار جهنم لكفركم ﴿فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ بأن هداكم للإسلام، ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك البيان البليغ ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ القرآن الكريم فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إرادة ثباتكم على الهدى، وازديادكم فيه.

وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٩﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَرُوا وَأَخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١١١﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٢﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١١٣﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١١٤﴾ .

﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ أمرهم سبحانه بتكميل الغير، بعدما أمرهم بتكميل النفس، ليكونوا هادين ومهدين، على ضد أعدائهم، الذين هم ضالون مضلون ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ أي إلى ما فيه صلاح ديني أو دنيوي ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بما استحسنته الشرع والعقل ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ عما استقبحة الشرع والعقل، وقد اتفق العلماء على أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، من فروض الكفايات، وقد سئل ﷺ مَن خَيْرُ النَّاسِ؟ قال: «أمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأتقاهم لله تعالى، وأوصلهم للرحم»^(١) وقوله: ﴿منكم﴾ للتبعض، لأن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، من عظام الأمور، التي لا يتولاها إلا العلماء بأحكامه

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ١٦/٣ .

تعالى، ومراتب الاحتساب، وكيفية إقامتها، فإنَّ من لا يعلمها، يوشك أن يأمر بمنكر، وينهى عن معروف، ويُغلظ في مقام اللين، ويلين في مقام الغلظة، وقيل: «مِنْ» بيانية، فالمعنى: كونوا أمة يدعون إلى الخير كقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ الآية. ولا يقتضي ذلك كون الدعوة فرض عين، لأنَّ الجهاد فرض كفاية بالإجماع، مع ثبوته بالخطابات العامة، وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري قال: قال ﷺ: «من رأى منكم منكراً - هو ما ليس فيه رضاء الله، من قول أو فعل، والمعروف ضده - فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه - معناه فليكرهه بقلبه - وذلك أضعف الإيمان»^(١) أي أضعف ثمرات الإيمان. وقيل على الأمراء باليد، وعلى العلماء باللسان، وعلى العوام بالقلب ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكل محبوب، وفي الحديث «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَمِ»^(٢) بفتحتين يُطلق على جماعة الإبل يعني ثوابه أكثر من ثواب صدقات الإبل النفيسة.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ بالعداوة ﴿وَأَخْتَلَفُوا﴾ في الديانة، بالتأويلات الزائغة، وكتم آيات الله الناطقة بالرسالة، وتحريفها بحطام الدنيا الدنيئة، كاليهود والنصارى، حيث تفرقوا فرقا كثيرة، وكفر بعضهم بعضاً ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي الآيات والحجج المبينة للحق، الموجبة لاتحاد الكلمة، والأظهر أن النهي فيه مخصوص بالتفرق في الأصول، أصول العقيدة، وأما في الفروع فهو رحمة لما روي «اختلاف أمتي رحمة» رواه البزار، وعزاه الزركشي في الأحاديث المشتهرة إلى كتاب الحجة، والحق أن المراد منه اختلاف الصحابة، ومن شاركهم في الاجتهاد، كالمجتهدين المعتد بهم من علماء الدين، الذين ليسوا بمتدعين ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وعيد شديد للذين تفرقوا، وفي الحديث الشريف:

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان رقم ٤٩.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السنة باب قتال الخوارج رقم ٤٧٥٨.

«مَنْ فارق الجماعة شبراً، فقد خلع ربة الإسلام من عنقه»^(١).

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ بياض الوجه وسواده، كنايةان عن ظهور بهجة السرور، وكآبة الخوف فيه، وقيل: يوسم أهل الحق، ببياض الوجه والصحيفة، وإشراق البشرة، وسعي النور بين يديه، وأهل الباطل بأضداد ذلك ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ ابتداء بحال الفريق الثاني، لِمَا أن المقام مقام التحذير، فيقال لهم: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ الهزمة للتوبيخ والمراد بهم جميع الكفار من أهل النار، وقال الحسن: إنهم المنافقون، وقيل: إنهم أهل البدع والأهواء ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ الشديد الموصوف بالعظيم، والأمر للإهانة ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم وصيغة المستقبل للدلالة على استمرار كفرهم، روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يرد عليّ يوم القيامة رهطٌ من أمّتي، فيُجلّون عن الحوض - أي يطردون - فأقول: يا رب أصحابي!! فيقول: إنه لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم»^(٢).

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي في الجنة، عبّر عن ذلك بالجنة، تنبيهاً على أن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى، لا يدخل الجنة إلا برحمته وفضله، كما ورد في الحديث الشريف «لن يدخل أحدكم عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله!! قال: ولا أنا، إلا أن يتغمّدني الله برحمته منه وفضل»^(٣). ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يظعنون عنها ولا يموتون.

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم، البخاري في الفتن ٥/١٣ بلفظ: «من كره من أميره شيئاً فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات مائة جاهلية» ومسلم رقم ١٨٤٩ في الإمارة بنحوه.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ٤١٣/١١ ومسلم في الطهارة رقم ٢٤٧ وفي رواية في الصحيحين بعده: فأقول «سُخِقاً سُخِقاً لمن بدّل بعدي» انظر جامع الأصول ٤٦٩/١٠.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ٢٥٢/١١ ومسلم رقم ٢٨١٦ في المناققين.

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ الواردة في الوعد والوعيد ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ شيئاً فشيئاً وإسناد التلاوة إليه تعالى مما لا يخفى من العناية بالتلاوة والمتلو عليه ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ ملتبسة بالحق لا شبهة فيها ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ إذ يستحيل الظلم منه، لأنه لا يحق عليه شيء فيظلم بنقصه، ولا يمنع عن شيء فيظلم بفعله، لأنه المالك على الإطلاق وفيه تعريض بأن الكافرين هم الظالمون، كما في قوله تعالى: ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكنَّ الناس أنفسهم يظلمون ﴾ ونفي الشيء لا يقتضي إمكانه، فقد يُنفى المستحيل، كما في قوله تعالى: ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ التعبير بما للتغليب، أي له ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أي أمورهم، فيجازي كلَّ بعمله .

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا آذَىٰ وَإِنْ يَفْتَلِدُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقَفُوا إِلَّا يَجْحَلُ مِنَ اللَّهِ وَجَحِيلٌ مِنَ النَّاسِ وَبَاءَ وَبَاءُ وَبِغَضِبِ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ .

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ كان ههنا تامة بمعنى الوقوع والحدوث، والمعنى: خلقتهم خير أمة، وهذا قول جمع من المفسرين، وإن كانت ناقصة فالمعنى: كنتم في علم الله، أو صرتم خير أمة ﴿ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ أي أظهرت لهم، والخطابُ قيل لأصحاب النبي خاصة، وقيل: إنه عام وهو الصحيح ويؤيده ما أخرجه الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه قال: قال

رسول الله ﷺ: «أعطيْتُ ما لم يُعط أحد من الأنبياء، نصرت بالرعب، وأعطيْتُ مفاتيح الأرض، وسميت بأحمد، وجُعِل الترابُ لي طهوراً، وجُعِلت أمتي خيرَ الأمم»^(١) وقال عمر رضي الله عنه «يا أيها الناسُ من سرّه أن يكون من تلك الأمة، فليؤدِّ الشرط» وأشار بذلك، إلى قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو كلام مستأنف، مبين لكونهم خير أمة، وقوله تعالى: ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي عن الكفر، وكل محظور ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وتدومون على الإيمان به تعالى، وهو يتضمن الإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به، فلو أخلَّ بشيء منه لم يكن مؤمناً، وإنما أحرَّ الإيمان مع تقدمه وجوداً ورتبةً للاهتمام به، لأنه من وظيفة الأنبياء ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ إيماناً صادقاً كما ينبغي ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ مما هم فيه من الكفر، وليس ﴿خيراً﴾ هنا أفعل تفضيل، بل هو لبيان أن الإيمان فاضل، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ؟﴾ ﴿مَنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفٰسِقُونَ﴾ قيل: الكافر قد يكون عدلاً في دينه، وهؤلاء مع كفرهم فاسقون متوردون، خارجون عن طاعة الله.

﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ أي ضرراً يسيراً، كطعن وتهديد أي لن يضرّوكم ضرراً ما إلا أذىً باللسان أو الطعن ﴿وَإِنْ يُفْتَلِكُواكُمْ يُولُواكُمْ الْأَدْبَارَ﴾ أي ينهزموا من غير أن يظفروا منكم بشيء، وتولية الأدبار كناية عن انهزامهم ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي لا أحد ينصرهم عليكم، أو يدفع بأسكم عنهم، وفي هذه الآية، دلالة واضحة على نبوة نبينا ﷺ، لكونها من الإخبار بالغيب، الذي وافقه الواقع، لأن يهود بني قينقاع، وبني قريظة، حاربوا المسلمين ولم يثبتوا، ولم ينالوا شيئاً منهم، ولم يتحقق لهم بعد ذلك راية.

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/٢٦٤ وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ قال: «خير الناس»، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام» يريد تنقذونهم من النار.

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ ﴾ أُلزمت على اليهود الذلة، وقد أذلهم الله ﴿ آيِنَمَا تُقِفُوا ﴾ حيثما وُجدوا وُصودفوا ﴿ إِلَّا بِحَبْلِ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي بدين الإسلام ﴿ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ ﴾ أي بعهد الذمة ﴿ وَبَاءُ وَبَعْضٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي رجعوا به مستوجبين للغضب ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ﴾ فهي محيطة بهم، إحاطة البيت المضروب على أهله ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ﴾ أي ظلماً وطغياناً، والتقييد ﴿ بغير حق ﴾ للدلالة على أنه لم يكن حقاً بحسب اعتقادهم أيضاً ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله تعالى .

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مِثْلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمِثْلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرَّتْ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُمَا وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ .

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾ الضمير لأهل الكتاب جميعاً، سَيِّئَتْ لتعداد محاسن مؤمني أهل الكتاب ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ مستقيمة على طاعة الله، ثابتة على أمره، والقائمة: المستقيمة العادلة، من أقمْتُ العودَ فقامَ بمعنى استقام ﴿ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ القرآن ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ أي ساعاته، واحدته إني بوزن مَعَى ﴿ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ أي يصلون، عبَّر عن تهجدهم بتلاوة القرآن، لأن التلاوة أهم الأركان في صلاة القيام، حيث تطول الصلاة لطول

القراءة، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي في حال صلاتهم وقيامهم وسجودهم.

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ صفة أخرى للأمة أي يؤمنون بها على الوجه الذي نطق به الشرع ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ تحقيقاً لمخالفتهم لليهود، لأنهم مع ضلالهم، يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، ويصدون الناس عن سبيل الله ﴿وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ صفة أخرى جامعة لفنون المحاسن، وأحسن المسارعة المبادرة بالرغبة والاختيار، لأن من رغب في الأمر سارع فيه، وصيغة المفاعلة للمبالغة، ولم يعبر عنها بالعجلة، لأن العجلة التقدم فيما لا ينبغي، وهي مذمومة، والمسارعة مقبولة، وضد العجلة الأناة، وضد المسارعة الإبطاء، وهو مذموم، لقواه تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْطِئَنَّ﴾.

وصفهم الله بخصائص، ما كانت في اليهود، فإنهم منحرفون عن الحق، غير متعبدين في الليل، مشركون بالله، ملحدون في صفاته، مدهنون في الاحتساب، متباطئون في الخيرات ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الموصوفون بالأوصاف الجميلة ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ من عداد الذين صلحت عند الله حالهم، وهذا ردٌ لقول اليهود: ما آمن به إلا شرارنا.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ كائناً ما كان ﴿فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ فلن يحرموا جزاءه البتة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ بشارة لهم، وإشعار بأن التقوى مبدأ الخير، وحسن العمل، وأن الفائز عند الله هو «أهل التقوى».

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المراد به عموم الكفار، لأنهم كانوا يتعززون بكثرة الأموال والأولاد حيث قالوا ﴿نحن أكثر أموالاً وأولاداً﴾ وكانوا يعيرون الرسول ﷺ وأتباعه بالفقر ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي من عذاب الله ﴿شَيْئاً﴾ يسيراً، والمراد من الإغناء الدفع، وإنما خصّ الأموال والأولاد بالذكر، لأن الإنسان يدفع العذاب عن نفسه تارة بالفداء

بالمال، وتارة بالاستعانة بالأولاد ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾
 دائمون مخلدون في عذاب جهنم.

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ﴾ ما ينفق الكفرة مفاخرةً وسُمعةً، ورياءً وعُجباً،
 بقصد الشناء، والإشارةً للتحقير ﴿فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي في هذه الدنيا
 الزائلة ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي برِدٍ شديد ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ﴾ زرع ﴿قَوْمٍ﴾
 ظلموا أنفسهم ﴿بِالْكَفْرِ وَالْمَعَاصِي﴾ ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ عقوبة على كفرهم،
 والمراد من التشبيه، الإشارة إلى عدم الفائدة، في الدنيا والآخرة، لأنه إن
 كان إنفاقهم في عداوة الإسلام، لم ينتفعوا بها، لأنه انقلب الأمر عليهم،
 وإن كان لمنافع الآخرة، فإن الكفر مانع من الانتفاع بها، فثبت أن جميع
 نفقات الكفار وصدقاتهم، لا فائدة لهم بها في الدارين ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾
 الله عزَّ وجلَّ والضميرُ للمنفقين أي ما ظلمهم بضياع نفقاتهم، وإهلاك
 الحَرْث ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ولكنهم ظلموا أنفسهم، بارتكاب ما
 استحقوا به العقوبة الشديدة.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا
 وُدًّا مَا عِنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِّنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ
 بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَاتَمْتُمْ أَوْلَاءَ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ
 وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ
 الْأَنَامِلَ مِنَ الْعَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن
 تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا
 وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كان رجال من المسلمين، يواصلون رجالاً من
 اليهود، لما كان بينهم من الجوار، والقراية، والصدافة، والحلف في
 الجاهلية، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية، وقال مجاهد: نزلت في قوم

من المؤمنين، كانوا يوالون رجالاً من المنافقين، فنهوا عن ذلك، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقوكم قالوا آمنا﴾ الخ وهي صفة المنافقين ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً﴾ وليجة، وهو الذي يُعرِّفه الرجل أحواله، ويُطلعه على أسراره، ثقة به، مأخوذ من بطانة الثوب، لأنه يلي البدن^(١) ﴿مِن دُونِكُمْ﴾ أي كائنة من غير المسلمين، ﴿لَا يَأْتُونَكُمُ خَبَالًا﴾ أي لا يقصرون لكم في الفساد، وأصل الخبال: الفساد الذي يلحق الإنسان، فيورثه اضطراباً كالمرض والجنون، ويُستعمل في الشر والفساد مطلقاً، فالمعنى: أنهم يفعلون معكم ما يقدرون عليه من الفساد ﴿وَدُوًّا مَا عَنْتُمْ﴾ تمنوا عنتكم، وهو شدة الضرر والمشقة أي تمنوا شدة ضرركم، في دينكم وديناكم، لفرط بغضهم لكم ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ أَشَدَّ الْبَغْضَاءِ﴾ كالأضمر مع الضراء ﴿مِن أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي ظهرت أمارات البغض والعداوة من فلتات ألسنتهم، لأنهم لشدة بغضهم لكم، لا يقدرون أن يحفظوا ألسنتهم ﴿وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْثَرُ﴾ أي وما يطنونه من البغض لكم، أكبر مما يظهرونه ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على وجوب الإخلاص في الدين، وموالاتة المؤمنين، ومعاداة الكافرين والمنافقين، أو قد أظهرنا لكم الآيات الدالة التي يتميز بها الولي من العدو ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما بين لكم، أي إن كنتم عقلاء، فلا تتخذوهم أولياء.

﴿هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ﴾ أي أنتم أولاء خاطئون في موالاتة اليهود والمنافقين ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ بسبب ما بينكم وبينهم من القرابة أو الصداقة ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمُ﴾ بسبب كونكم مسلمين ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أي والحال أنكم تؤمنون بكتابهم كله، وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم، وفيه توبيخ بأنهم في باطلهم، أصلب منكم في حقكم ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ نفاقاً وتغريراً

(١) البطانة يراد بها خواصُّ الرجل، وأصدقاؤه الذين يباح لهم بسره، مأخوذ من بطانة الثوب، تشبيهاً لذلك الصاحب والصدِّيق بالبطانة التي تكون داخل الثوب، وهي استعارة لطيفة.

﴿ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ تحسراً وتأسفاً، حيث لم يجدوا إلى الشفي سبيلاً^(١) ﴿ قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ ﴾ دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم، حتى يهلكوا به، والمراد به ما يغيظهم من قوة الإسلام وعزّ أهله ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي يعلم ما في قلوبهم من البغضاء والحسد، والمراد ﴿ بذات الصدور ﴾: الخواطر القائمة بالقلب.

﴿ إِنْ تَمَسَّكُمُ حَسَنَةٌ ﴾ بيان لتناهي عداوتهم إلى حدّ الحسد، أي ما ينالكم من خير وظفر، ومنفعة ورخاء ﴿ تَسْوَهُمْ ﴾ أي يحزنهم ويغيظهم ذلك ﴿ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ من شدة وجدب، وبلاء وهزيمة ﴿ يَفْرَحُوا ﴾ يبتهجوا ويشمتوا ﴿ بِهَا ﴾ بإصابتها، فهم لا ترجى موالاتهم أصلاً، فكيف تتخذونهم بطانة؟ ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا ﴾ على عداوتهم وعلى مشاق التكليف ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ الله فتكفوا عن موالاتهم، وسائر ما حرّم الله تعالى عليكم ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ ﴾ مكرهم وحيلتهم التي دبروها لأجلكم ﴿ شَيْئاً ﴾ أي شيئاً من الضرر، وهذا تعليم من الله تعالى، وإرشاد إلى أن يُستعان على كيد العدو، بالصبر والتقوى، يقال: كادَهُ كيداً، خدعه ومكر به، وهو أن يحتال الإنسان ليقع غيره في مكروه ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ من الصبر والتقوى ﴿ مُحِيطٌ ﴾ علماً فيجازيكم بما أنتم أهله، ويجازيهم على نفاقهم وإجرامهم.

﴿ وَإِذَا عَدَاوَةٌ مِنْ أَهْلِكَ بُيِئَتْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَقْلَعِدَ الْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٢) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣﴾ .

(١) عضّ الأنامل عادة العاجز النادم، الذي لا يستطيع أن يفعل شيئاً، أمام ما عرض له من مصاعب ومتاعب، فيعض على أصابعه تحسراً وأسى، وهذا من مجاز الأمثال.

﴿وَإِذْ عَدَوْتَ﴾ أي اذكر للمؤمنين وقت غدوك، ليتذكروا ما وقع فيه، من عدم الصبر والتقوى، فيعلموا أنهم إن لزموا الصبر والتقوى، لا يضرهم كيد الكفرة، والمراد به خروجه ﷺ إلى أحد، وكان ذلك من منزل عائشة رضي الله عنها ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي من عند أهلك ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تنزلهم وتهيء لهم ﴿مَقْلَعِدَ الْقِتَالِ﴾ مواقف وأماكن للقتال ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوالكم، وعليم بنياتكم، وفيه إيذان بأنه قد صدر عنهم من الأقوال والأفعال، ما لا ينبغي صدوره.

روي أنه اجتمع كفار قريش لحرب رسول الله ﷺ، ومن تابعهم من بني كنانة، وأهل تهامة، بقيادة أبي سفيان، فلما سمع ﷺ خروجهم استشار أصحابه، فقال أكثر الأنصار يا رسول الله اخرج بنا إليهم، لئلا يعيرونا أنا جَبْنًا عنهم، فلم يزل الناس به حتى دخل ولبس لأمته - لباس الحرب - فخرج بالقب، فلما قاربوا عسكر الكفرة، انخزل «عبد الله» بن أبي بثلث الناس ومضى ﷺ حتى نزل الشُعْبَ من أحد، فجعل ظهر عسكره إلى أحد، وتعبًا للقتال، وأمر على الرماة «عبد الله بن جبيرة» وكانوا خمسين رجلاً، وقال لهم: ادفعوا عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف، ووقع القتال، فأعانهم الله تعالى حتى هزموا الكفار، فلما رأى الرماة انهزام الكفار طمعوا وخالفوا أمر رسول الله ﷺ، وتركوا مواقعهم، فترع الله الرعب من قلوب المشركين، فكروا عليهم وكان ما كان.

﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحي العسكر، همؤا بعد انخزال ابن سلول بالرجوع، فعصمهم الله تعالى، فمضوا مع رسول الله ﷺ، والظاهر أنه ما كانت عزيمة، لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي عاصمهما عن اتباع تلك الخطرة ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي فليتكولوا عليه ولا يتوكلوا على أحد غيره.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ تذكير ببعض ما أفادهم التوكل، وبدر ماء

بين مكة والمدينة، كان لرجل يسمى بدرأ فسمي به، وكانت وقعة بدر في يوم الجمعة، في السابع عشر من رمضان، في الثانية من الهجرة ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ المراد بالذلة هو ضعف الحال، بقلة العدد، والعدَد ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الثبات مع رسول الله ﷺ، والصبر على طاعته، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تشكرون ربكم على ما أنعم الله به عليكم من النصر.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٧﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنَطْمِئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٨﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمُهُمْ فَيَنفَلِبُوا ظَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ظرف لنصركم، أي إذ نصركم في وقت قولك ﴿للمؤمنين﴾ حين أظهروا العجز عن المقاتلة، قال الشعبي: بلغ المؤمنين أن كرز بن جابر الحنفي يريد أن يمد المشركين فشق ذلك على المؤمنين فنزل حينئذ ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ إنكار أن لا يكفيهم ذلك، إشعاراً بأنهم كانوا كاليائسين من النصر، لضعفهم وقتلهم، وقوة العدو وكثرتهم ﴿أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ﴾ وفي التعبير بعنوان الربوبية لإظهار العناية بهم، والإشعار بعلّة الإمداد ﴿بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ للنصرة.

﴿بَلَىٰ﴾ إيجاب لما بعدها أي بلى يكفيكم، ثم وعد لهم الزيادة على الصبر والتقوى، حثاً عليهما وتقوية لقلوبهم، فقال: ﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي إن تصبروا على القتال، وما أمرتم به، وتتقوا ربكم في ما حذرکم منه من مخالفة رسوله ﷺ ﴿وَيَأْتُوكُمْ﴾ المشركون ﴿مِنْ فُورِهِمْ هَذَا﴾ أي من

ساعتهم هذه، وهو في الأصل مصدر فارت القدر، إذا غلّت، ومنه: «إن شدة الحر من فور جهنم» يطلق على الغضب، ثم إنه استعير للسرعة، ووصف بهذا إيذاناً بتحقيق سرعة الإمداد ﴿يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ﴾ في حال إتيانهم ولا يتأخرون عن إتيانهم ﴿يَحْمَسُوا النَّفْيَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ من التسويم وهو إظهار علامة الشيء، والمراد معلّمين أنفسهم أو خيلهم، عن ابن عباس قال: كانت سيماء الملائكة يوم بدر، عمائم بيض، قد أرسلوها في ظهورهم، ويوم حنين عمائم حمر، واختلف المفسرون في إمدادهم فقال ابن جرير: وعدهم بثلاثة آلاف، ثم وعدهم بخمسة آلاف في غزوة أحد، ولكن لم يقع ذلك، لعدم وقوع الشرط بالأمور الثلاثة: وهي الصبر، والتقوى، وإتيان أصحاب الكفر، وقد ثبت بالنص أنهم أمّدوا يوم بدر بألف، كما في سورة الأنفال، وأما يوم «أحد» فالدلالة على أنهم لم يمدوا، لأنهم لو أمّدوا لم ينهزموا، وإنما قدّم لهم الوعد بنزول الملائكة، لتقوية قلوبهم.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي الإمداد لبيان أن الأسباب الظاهرة، بمعزلٍ من التأثير، وأن حقيقة النصر مختص به عزّ وجل، ليثق به المؤمنون، ولا يقنطوا منه عند فقدان أسبابه ﴿إِلَّا بُشِّرْ لَكُمْ﴾ أي ما جعل الله إمدادكم لشيء من الأشياء، إلا للبشرى لكم، بأنكم تنصرون ﴿وَلِنُظْمِ قُلُوبِكُمْ بِهِ﴾ أي بالإمداد، وفي الآية إشعار بأن الملائكة لم يباشروا يومئذ القتال، وإنما كان إمدادهم بتقوية قلوب المؤمنين، ﴿وَمَا النَّصْرُ﴾ أي حقيقة النصر على الإطلاق ﴿إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ بتمكين الله تعالى لهم من رقاب الأعداء، على أن مجرد القتال، لا يستدعي النصر، بل لا بد من انضمام ضعف المقاتلين وأمور أخرى، وما النصر المعهود إلا من عنده تعالى، لا من عند الملائكة ولا غيرهم ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب الذي لا يُغالب فيما قضى به ﴿الْحَكِيمِ﴾ الذي يفعل على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿ولقد نصركم الله ببدر﴾،

والمعنى لقد نصركم الله يومئذ ليقطع أي يهلك وينقص ﴿طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي طائفة منهم، بقتل وأسر، وقد وقع ذلك حيث قتل من رؤسائهم سبعون، وأسر سبعون ﴿أَوْ يَكْتَبُهُم﴾ أي يخزيهم والكتب: شدة الغيظ، أو وهن يقع في القلب، وقيل: الكتب الإصابة بمكروه ﴿فَيَنْقَلِبُوا خَآبِينَ﴾ غير فائزين، والخيبة الحرمان بعد الأمل، واليأس يكون قبله وبعده، ونقيض الخيبة الظفر، ونقيض اليأس الرجاء.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ لَمَّا سُحِّجَ وَجْهُ الرَّسُولِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: كَيْفَ يَفْلَحُ قَوْمٌ صَنَعُوا هَذَا بِنِيِّهِمْ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ^(١)، وَعَنْ ابْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ ﷺ يَوْمَ أَحُدٍ: «اللَّهُمَّ الْعَنِ أَبَا سَفِيَانَ، وَالْعَنِ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ»، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَالْمَعْنَى: لَيْسَ لَكَ مِنْ أَمْرِ هَؤُلَاءِ شَيْءٌ، يَعْنِي لَا تَقْدِرُ أَنْ تَجْبِرَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، وَلَا عَلَى التَّوْبَةِ، وَلَا تَمْنَعُهُمْ عَنْهَا، وَلَا تَقْدِرُ أَنْ تَعَذِّبَهُمْ، فَإِنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِيَدِ اللَّهِ ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ عَطَفَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿أَوْ يَكْتَبُهُمْ﴾ وَالْمَعْنَى: إِنَّ اللَّهَ مَالِكٌ أَمْرِهِمْ، فِيمَا أَنْ يَهْلِكَهُمْ، أَوْ يَكْتَبَهُمْ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ أَسْلَمُوا أَوْ يُعَذِّبَهُمْ إِنْ أَصْرُوا، وَلَيْسَ لَكَ مِنْ أَمْرِهِمْ شَيْءٌ، وَإِنَّمَا أَنْتَ عَبْدٌ بِأُمُورٍ يَأْذَرُهُمْ وَجِهَادَهُمْ ﴿فَأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أَيِ جَزَاءٍ لِّظَلْمِهِمْ قَدْ اسْتَحَقُّوا التَّعْذِيبَ.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خَلْقًا، وَمَلَكًا، فَهُوَ الْأَمْرُ كُلُّهُ لَا مَدْخَلَ لِأَحَدٍ فِي ذَلِكَ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَيَحْكُمُ مَا يَرِيدُ ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ مَشِيئَةً مَبْنِيَّةً عَلَى الْحِكْمِ، وَالْمَصَالِحِ ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَنْ يُعَذِّبَهُ عَدْلًا مِنْهُ، وَتَقْدِيمَ الْمَغْفِرَةِ لِلْإِيدَانِ بِسَبْقِ رَحْمَتِهِ تَعَالَى عَلَى غَضَبِهِ ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ

(١) هذه الآية في قصة أحد، وقد وردت اعتراضاً في ثنايا الحديث عن غزوة بدر، وذلك لما كُسرَت رِباعيته ﷺ، وسُحِّجَ وَجْهُهُ الشَّرِيفِ، قَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ: كَيْفَ يَفْلَحُ قَوْمٌ خَضَبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ بِالْدَمِّ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ؟ فَتَزَلَّتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ...﴾ الْآيَةُ، وَانظُرْ صَفْوَةَ التَّفَاسِيرِ.

رَحِيمٌ ﴿ لعِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ، وَتَخْصِيصُهُ بِالذِّكْرِ ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى تَرْجِيحِ جِهَةِ الْإِحْسَانِ، نَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَغْفِرَ لَنَا وَيَرْحَمَنَا.

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٢٥﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٢٧﴾ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٩﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٠﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم وَجَنَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣١﴾ .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ خَاطَبَهُم بِوَصْفِ الْإِيمَانِ، لِأَنَّهُمْ أَهْلٌ لِلِاسْتِفَادَةِ مِنَ الْخُطَابِ، وَتَذْكَيرًا لَهُمْ بِمَا هُوَ أَصْلَحُ وَأَنْفَعُ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا ﴾ الْمُرَادُ مِنَ الْأَكْلِ الْأَخْذُ ﴿ أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ﴾ ضَعْفُ الشَّيْءِ: مِثْلُهُ، وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْحَالُ لِتَقْيِيدِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، بَلْ لِمُرَاعَاةِ الْوَاقِعِ، فَقَدْ رَوَى أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يُرَبِّي إِلَى أَجْلِ، فَإِذَا حَلَّ قَالَ لِلْمَدْيُونِ: زِدْنِي فِي الْمَالِ، حَتَّى أَزِيدَكَ بِالْأَجْلِ، فَيَفْعَلُ عِنْدَ كُلِّ أَجْلِ هَكَذَا، فَيَسْتَغْفِرُ الشَّيْءَ الطَّافِيئُ مَالَهُ بِالْكَلِيَّةِ، فَهِيَ عَنْ ذَلِكَ ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فِيمَا نَهَيْتُمْ عَنْهُ مِنَ الرِّبَا ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ رَاجِعِينَ لِلْفَلَاحِ، وَاقْتِرَانَ الرَّجَاءِ بِالْتَّقْوَى، يَفِيدَانِ أَنَّ يَكُونُ الْعَبْدُ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، فَهِيَ جَنَاحَانِ يَطِيرُ الْعَبْدُ بِهِمَا إِلَى مَنَازِلِ الْقُدْسِ، وَمَعَارِجِ الْفَضْلِ وَالْكَمَالِ.

﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ أَيِ احْتَرَزُوا مِنْ أَكْلِ الرِّبَا وَنَحْوِهِ، مِنَ الْمَعَاصِي

المفضية إلى دخول النار ﴿الَّتِي أُعِدَّتْ﴾ هُيئت ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ وهي غير النار التي يدخلها عصاة المؤمنين، وفيها إشارة إلى أن أكلة الربا على شفا حفرة الكفر وفيها تنبيه على أن النار بالذات معدة للكفار، وبالعرض للعصاة، وقال أبو حنيفة رحمه الله: هي أخوف آية في القرآن، حيث أوعد الله المؤمنين، بالنار المعدة للكافرين.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أطيعوا أمرهما راجين لرحمة الله تعالى في جميع أحوالكم، وإيراد لعل في الآيتين للإشعار بعزة منال الفلاح والرحمة.

﴿وَسَارِعُوا﴾ بادروا وأقبلوا عطف على أطيعوا ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إلى ما يستحق به المغفرة، كالإسلام، والتوبة، والإخلاص، وقيل: إلى الهجرة، والجهاد، والظاهر العموم لأن اللفظ عام ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي عرضها كعرضهما، وذكر العرض للمبالغة في وصفها بالسعة، والعرب كثيراً ما تصف الشيء بالعرض، إذا أرادوا المبالغة، فليس المقصود تحديد عرضها بل هو كناية عن السعة، بما هو واردٌ على تصور السامعين ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هيئت لهم، وإنما أضيفت إليهم، لأنهم المقصودون بالذات.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ صفة مادحة للمتقين، ومفعول ﴿ينفقون﴾ محذوف، ليتناول كل ما يصلح للإنفاق ﴿فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ في حالتي الرخاء والشدة، أي في جميع الأحوال، إذ الإنسان لا يخلو عن مسرة أو مضرة، والمعنى: لا يخلون عن إنفاق ما قدروا عليه من قليل أو كثير، وفي الحديث الشريف: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»، وافتتح بذكر الإنفاق، لأنه أشق شيء على النفس، وأدله على الإخلاص، ولأنه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال، للحاجة إليه في مجاهدة العدو، ومواساة المسلمين ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْفَيْضَ﴾ الممسكين عليه، الكافين عن إمضائه مع القدرة

والغيظ: هيجان الطبع عند رؤية ما يكرهه أو ينكره^(١) ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أي التاركين عقوبة من استحقوا مؤاخذته إذا لم يكن في ذلك إخلال بالدين، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يحتمل الجنس، ويدخل تحته هؤلاء، أو العهد فتكون للكاظمين للغيظ، والإحسان إما أن يكون بإيصال النفع إليه، أو بدفع الضرر عنه، فالأول هو المراد بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ﴾ ويدخل فيه إنفاق العلم، والمال، وأما دفع الضرر فهو إما في الدنيا فهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ فصارت هذه الآية من هذا الوجه، دالة على جميع جهات الإحسان، ولما كانت هذه الخصال إحساناً ومن فعلها فهو محسن، ذكر الله تعالى ثوابه بقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فهو أعظم درجات الثواب.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ فعلت بالغة في القبح، كالزنى، والقتل، والتعري عن الثياب ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بأن أتوا ذنباً أيّ ذنب كان، وقيل: الفاحشة الكبيرة، وظلم النفس الصغيرة ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ تذكروا وعيده وحقه العظيم ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ بالتوبة والندم، وإلا فطلب المغفرة مع الإصرار كالاستهزاء، قالت رابعة العدوية: استغفارنا هذا يحتاج إلى الاستغفار ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ استفهام بمعنى النفي أي لا يغفر الذنوب إلا رب العزة والجلال، والمراد وصفه تعالى بسعة الرحمة، والحث على الاستغفار، والوعد بقبول التوبة، والإشعار بأن الذنوب وإن جلّت، فإن عفوه تعالى أجلّ أي هل تعرفون أحداً يقدر على غفر الذنوب، غير من وسعت رحمته كلّ شيء ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ ولم يقيموا على

(١) روى البيهقي أن جارية لعلبي بن الحسين - من آل البيت - جعلت تسكب عليه الماء ليتهاً للصلاة، فسقط الإبريق من يدها فشجّه، فرفع رأسه إليها وهو مغضب، فقالت: إن الله تعالى يقول: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ﴾ فقال لها: قد كظمت غيظي، قالت: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ قال: قد عفوتُ عنك، قالت: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال: اذهبي فأنتِ حرةٌ لوجه الله تعالى.

ذنوبهم غير مستغفرين والإصرار: المداومة في المعصية، ولا يقال في الخير أصراً أي ولم يصروا على ما فعلوه من الذنوب^(١) ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمون قبح فعلهم، والوعيد عليه، والتقييد بذلك، لما أنه قد يُعذر من لا يعلم الأمر، إذا لم يكن عن تقصير في تحصيله.

﴿أُولَئِكَ﴾ المذكورون بالصفات الحميدة ﴿جَزَاءُكُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي ستر لذنوبهم كائنة من جهته تعالى لتوبتهم ﴿وَجَنَّاتٌ﴾ عرضها السماوات والأرض ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ المغفرة، والجنات، والتعبير ههنا بالأجر، مشعرٌ بأنه مستحق بمقابلة العمل، لمزيد الرغبة في الطاعة، والزجر عن المعاصي، وفي هذه الآيات دلالة على أن المؤمنين ثلاث طبقات: «المتقين، التائبين، والمصرين» والمغفرة تكون للصنفين الأولين دون المصرين.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ .

(١) في الحديث الشريف: « ما من عبد مؤمن يذنب ذنباً، فيقوم ويتطهر، ثم يصلي ركعتين، ثم يستغفر الله إلا غفر الله له، ثم قرأ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ...﴾ الآية أخرجه أبو داود والترمذي.

﴿ قَدْ خَلَّتْ ﴾ مضت رجوع إلى تفصيل بقية القصة ﴿ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ أي وقائع سنّها الله في الأمم المكذبة، ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ بأقدامكم، والخطاب للمؤمنين ﴿ فَانظُرُوا ﴾ تأملوا ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ أي آخر أمرهم، الذي أدى إليه تكذيبهم لأنبيائهم، واعتبروا بما ترون من آثار هلاكهم، فالعاقل من اعتبر بغيره.

﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي هذا إيضاح لسوء عاقبة المكذبين، يهتدي ويتعظ به المتقون، والمراد أنه هدى وبيان لجميع الناس، لكن المنتفع به المتقون، لأنهم يهتدون به.

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ تشجيع للمؤمنين، وتقوية لقلوبهم، وتسليّة عما أصابهم يوم أحد من القتل، والجراحات والوهن: الضعف أي ولا تضعفوا عن الجهاد في سبيل الله عما نالكم، ولا تحزنوا على من قتل ﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾ أي والحال أنكم الأعلون الغالبون فإنكم على الحق، وقتالكم لله سبحانه، وقتالكم في الجنة، وإنهم على الباطل، وقتالهم للشيطان، وقتالهم في النار، وهو تصريح بالوعد والغلبة، وحكى القرطبي أنهم لم يخرجوا بعد ذلك للغزو، إلا ظفروا في كل غزوة في عهده ﷺ ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ متعلق بالنهي، أي لا تهنوا إن رسخ إيمانكم، وإن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون.

﴿ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ ﴾ القَرْحُ: بالفتح والضم الجِرَاحُ ﴿ فَقَدِمَسَ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلَهُ ﴾ يوم بدر ويوم أحد، فإن المسلمين نالوا منهم، وانتصروا عليهم، قبل أن يخالفوا أمر الرسول ﷺ ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا ﴾ نصرتها ﴿ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ والأيام يراد بها الأوقات، لا الأيام العرفية، وهي أيام الظفر الجارية فيما بين الأمم، والمداولة نقل الشيء من واحد إلى آخر، ومن كلامهم: «الأيام دُول»، أي تنقل من أمة إلى أمة والمعنى: لا يدوم مسائرهما، ولا مضائرهما، فيوم علينا، ويوم لنا، وفيه تسليّة للمؤمنين ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ عطف على علة محذوفة، كأنه قيل: نداولها

بين الناس، لتكون حِكْمًا وفوائد، وليعلم، والكلام من باب التمثيل، أي يعاملكم معاملة من يريد أن يعلم المخلصين، الثابتين على الإيمان من غيرهم، والعلم فيه مجاز عن التمييز، أي ليميز الثابتين على الإيمان من غيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ جمع شهيد أي يكرم أناساً منكم بالشهادة، وهم شهداء أحد، رُوي عن عكرمة أنه قال: لَمَّا أَبْطَأَ عَلَى النَّسَاءِ الْخَبِيرُ، خَرَجْنَ يَسْتَخْبِرْنَ، فَإِذَا رَجَلَانِ مَقْتُولَانِ عَلَى دَابَّةٍ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: زَوْجُكَ وَابْنُكَ!! فَقَالَتْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي شَرَفَنِي بِقَتْلِهِمْ، ثُمَّ قَالَتْ يَتَّخِذُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ شُهَدَاءَ، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي الكافرين، وفيه تنبيه على أنه تعالى لا ينصر الكافرين على الحقيقة، وإنما يغلبهم أحياناً استدراجاً لهم، وابتلاءً للمؤمنين، ولو كان النصر دائماً للمؤمنين، لكان الناس يدخلون في الإيمان، لأنهم يعرفون أنه الحق وقيل: المراد بالظالمين المنافقين، كابن أبي ابن سلول، ومن تبعه، الذين فارقوا جيش الإسلام، ورجعوا ولم يقاتلوا.

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليطهرهم ويصفيهم من الذنوب، إن كانت الدولة عليهم، وأصل التمحيص: تخلص من كل عيب، يقال: محصت الذهب إذا أزلت خبثه ﴿وَيُمَحِّقَ الْكُفْرِينَ﴾ ويهلكهم إن كانت عليهم، ومعنى الآية: إن قتلكم الكافرون فهو شهادة، وتطهير لكم، وإن قتلتموهم أنتم، فهو استئصال لهم وشفاء لصدوركم.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ بل أحسبتم، ومعناه الإنكار، والخطاب للذين انهزموا يوم أحد ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ أي والحال أنه لم يتبين المجاهدون منكم في سبيل الله، والصابرون على ما ينالهم في ذات الله؟ ﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ الذين يتحملون أقسى الشدائد نصرة لدين الله، والمراد من الآية أنه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر، أي الجمع بينهما.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ خطاب لطائفة من المؤمنين، لم يشهدوا غزوة بدر، فالمراد بالموت، الموت في سبيل الله، وهي الشهادة، ولا بأس بتمنيها، ولا يرد أن في تمني الموت غلبة الكفار، لأن قصد المتمني الوصول إلى كرامة الشهداء لا غير، وكان المتمنون ألحوا على الرسول ﷺ في الخروج إلى غزوة أحد، ثم ظهر خلاف ذلك منهم ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدته ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ أي فقد رأيتموه معانين له، حين قُتل من قُتل من إخوانكم، وهو عتاب في حق من انهزم، وتوبيخ لهم على أنهم تمنوا الحرب، وتسببوا لها، ثم جبنوا وانهزموا عنها.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٤٨﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٤٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٤٧﴾ فَآلَنَّهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٤٨﴾ .

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ محمد اسم علم لنبينا ﷺ سمَّاه به جده عبد المطلب لرؤية رأها، قال: رجوت أن يحمد في السماء والأرض، وقد كان المشركون يسمونه «مذمماً» لأنه عاب دينهم، وحقر أصنامهم، وكان صلوات الله وسلامه عليه يقول: ألم تروا كيف صرف الله

لعن قريش، وشتمهم لي، يشتمون مذمماً وأنا محمد!! روي أنه لما رمى ابن قمئة رسول الله ﷺ بحجر، فكسر رباعيته، وشجَّ وجهه، وذبح عنه مصعب بن عمير رضي الله عنه وقتله ابن قمئة، وهو يرى أنه قتل النبي ﷺ فقال عدوُّ الله: قد قتلْتُ محمداً، وصرخ صارخاً ألا إن محمداً قد قُتل، فجعل الرسول ﷺ يدعو المؤمنين: إليَّ يا عبادَ الله، فانحاز إليه ثلاثون من أصحابه، وحموه، حتى كشفوا عنه المشركين، وتفرق الباكون وقال بعضهم ليت ابن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وقال ناس من المنافقين: لو كان نبياً لما قُتل، فارجعوا إلى إخوانكم ودينكم، فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك: يا قوم إن كان محمد قد قتل فإنَّ رب محمد حيٌّ لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله، فقاتلوا على ما قاتل عليه، ثم شدَّ بسيفه فقاتل حتى قتل، فنزلت الآية أي وما محمد إلا رسول، قد مضت من قبله الرسل، والرسل منهم من مات ومنهم من قتل، فعليكم أن تمسكوا بدينه، بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، لأن المقصود من بعثة الرسل، تبليغ الرسالة، لا وجوده بين أظهر قومه ﴿أَفَأَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾؟ إنكار لارتدادهم عن الدين، بخلوه ﷺ بموتٍ أو قتل، وليس المراد ارتدادهم حقيقة، وإنما هو تغليظ عليهم، فيما كان منهم من الفرار، فما ارتد أحد يومئذ من المسلمين، إلا من كان من المنافقين ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ﴾ مجاز عن الارتداد، وهو في الأصل الرجوع القهقري ﴿فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً﴾ من الضر، وإنما يضر نفسه، بتعريضها للسخط والعذاب ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ المراد بالشاكرين: الثابتين الطائعين.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي إلا بمشيئة الله تعالى والمعنى: إن لكل نفسٍ أجلاً مسمًى في علمه تعالى، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون، بالإحجام عن القتال، أو الإقدام عليه، وفيه تحريضٌ وتشجيعٌ على القتال لإعلاء كلمة الله ﴿كَتَبْنَا﴾ أي كتب الله تعالى كتاباً ﴿مُؤَجَّلًا﴾ موقتاً بوقتٍ معلوم، لا يتقدم ولا يتأخر، وظاهر الآية يؤيد

مذهب أهل السنة، القائلين بأن المقتول ميتٌ بأجله ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ تعريض لمن شغلتهم الغنائم يوم أحد، فإن المسلمين حملوا على المشركين وهزموهم، وأخذوا يجمعون الغنائم، فلما رأى الرماة ذلك، أقبلوا على الغنائم وخلوا مكانهم، فانتهز المشركون ذلك، وحملوا عليهم من ورائهم فهزموهم، والمعنى: من أراد بعمله ثواب الدنيا، نُؤْتِه منها ما نشاء أن نُؤْتِه إياه، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ﴾ إعلاء كلمة الله ﴿نُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾ من ثوابها، حسبما جرى به الوعد الكريم، والآية وإن نزلت في الجهاد، لكنَّ حكمها أنها عامة في جميع الأعمال الحسنة ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ المراد إمَّا المجاهدون من الشهداء وغيرهم، وإما جنس الشاكر، وهم داخلون فيها دخولاً أولياً، وتصدير الجملة بالسین وإبهام الجزاء، من التأكيد، والدلالة على فخامة الجزاء ما لا يخفى.

﴿وَكَايْنٍ﴾ كلام ناعٍ عليهم سوء صنيعهم، حيث لم يستنوا بسنن الربانيين، المجاهدين بنبيهم، مع أنهم أولى بذلك منهم، حيث كانوا خير أمة أخرجت للناس «كأين» فيها معنى التكثير بمعنى كم ﴿مَنْ نَبِيٍّ﴾ المراد من النبي هنا الرسول ﴿قَتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ﴾ أي كثير من الأنبياء، قاتل معه جموع كثيرة، والريثُ المنسوب إلى الرب، أي قاتل معه لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه، العلماء والعابدون أو أتباع كثيرة ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ الوهن: العجز والضعف أي فما عجزوا وما جنوا، ولم تضعف همتهم ﴿لِمَا أَصَابَهُمْ﴾ من القتل والجراح ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أثناء القتال، فإن كون ذلك في سبيله عزَّ وجل، ممَّا يقوي قلوبهم، ويزيل وهنهم ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ عن الجهاد أمام الأعداء ﴿وَمَا اسْتَكَاثُوا﴾ أي ما خضعوا لعدوهم وأصله من السكون، لأن الخاضع يسكن لصاحبه، ليفعل به ما يريدہ ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ فينالهم الضرر ليعظم قدرهم، وهم الذين يصبرون على مقاساة الشدائد في سبيل الله.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ﴾ أي قول المجاهدين الفعلية ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ أي ما

كان قولهم عند الشدائد والآلام، إلا أن قالوا ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ أي صغائرنا ﴿ وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ﴾ أي تجاوزنا عن الكبائر أضافوا الذنوب والإسراف إلى أنفسهم، مع كونهم ربانيين، هضماً لأنفسهم ﴿ وَثَبَّتْ أقدامنا ﴾ في مواطن الحرب، بتقوية قلوبنا أو وثبت أقدامنا على دينك الحق ﴿ وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أي على الكفار، وقولهم هذا، كالتميم لبيان صلابتهم في الدين والمقصود من الآية الكريمة حكاية ما جرى لسائر الأنبياء وأتباعهم، لتقتدي هذه الأمة بهم، وفيه من التعريض بالمنهزمين، وكيفية الطلب بالأدعية عند النوائب والمحن.

﴿ فَقَالَهُمْ اللَّهُ ﴾ بسبب ثباتهم ودعائهم ﴿ ثَوَابِ الدُّنْيَا ﴾ النصر والغنمة والعز والذكر الجميل ﴿ وَحَسَنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ﴾ أي وثواب الآخرة الحسن، وهو الجنة، والنعيم المخلد فيها ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي يحب أهل الفضل والإحسان.

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرَيْنَاكُمْ مَا تَحِبُّونَ مِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلْوَنَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَابِكُمْ فَأَتَيْتُمُ غَمًّا يَغْمِرُ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ۞

﴿يَتَائِهَاتِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي إن أطعتم الكفار والمنافقين فيما يأمرونكم به، وقيل المراد بهم أهل الكتاب حيث كانوا يقولون: لو كان نبياً لما غلب، وإنما هو رجل حاله كحال غيره، يومٌ له ويومٌ عليه، ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أي يرجعونكم إلى أول أمركم، وهو الشرك ﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ أي غير فائزين بشيء من الدنيا والآخرة، وذلك أعظم الخسران.

﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَانِكُمْ﴾ إضراب عما يفهم من مضمون الشرطية، كأنه قيل: فليسوا أنصاركم حتى تطيعوهم، بل الله ناصركم ومولاكم، ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ فخصوه بالطاعة والاستعانة، لأنه القوي القادر الذي لا يُغلب، والناصر في الحقيقة لأوليائه وأحبابه المتقين.

﴿سَنُنْفِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ السين لتأكيد الإلقاء، والرعب: الخوف والفرع، والمراد من الموصول أبو سفيان وأصحابه من كفار قريش، وفي الحديث: «نصرتُ بالرعب مسيرة شهر»^(١) يعني نصرني الله بإلقاء الخوف في قلوب أعدائي، من مسيرة شهر بيني وبينهم، يريد ما قذف الله في قلوبهم من الخوف، يوم أحد، حتى تركوا القتال ﴿يَمَّا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ أي بسبب إشراكهم به تعالى فإنه من موجبات خذلانهم ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ﴾ أي بإشراكه ﴿سُلْطَانًا﴾ أي حجة، سُميت به لوضوحها وإنارتها ﴿وَمَا وَبَهُمُ النَّارُ﴾ أي مسكنهم الذي يأوون إليه في الآخرة النار لا ماوى لهم غيرها ﴿وَيَبْتَئَسُ الْمُتَوَلَّى الظَّالِمِينَ﴾ أي بثست جهنم مسكناً وماوى للظالمين، وإنما وضع الظاهر للتغليظ، والإشعار بأنهم في إشراكهم ظالمون، وفي جعلها مثوأم، بعد جعلها ماوأم، نوع رمز إلى خلودهم فيها، فإن المثوى مكان الإقامة الدائمة.

(١) طرف من حديث شريف رواه البخاري ٣٦٩/١ ومسلم رقم ٥٢١ وأوله: «أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ...» الحديث، وانظر جامع الأصول ٥٢٩/٨.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ روي أنه لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، قال ناس من المؤمنين: من أين أصابنا هذا، وقد وعدنا الله بالنصر؟ فنزل ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ ووعدهم بإيهم بالنصر بشرط التقوى والصبر، بقوله تعالى: ﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ وقال ﷺ للرماة: لا تبرحوا عن هذا المكان، فإننا لا نزال غالبين ما دمتم، وقد كان كذلك، فإن المشركين لما أقبلوا جعل الرماة يرشقونهم بالنبل، والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا، والمسلمون على آثارهم يقتلونهم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ﴾ أي تقتلونهم قتلاً كثيراً، من حسه إذا بطل حسه، وقوله تعالى ﴿يَا إِذْنَهُ﴾ أي بتيسيره وتوفيقه، وتقييد صدق وعده تعالى، بوقت قتلهم بإذنه، صريح في أن الموعد هو النصر العملي ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ جبتم وضعف رأيكم، وملتم إلى الغنيمة، فإن الحرص من ضعف العقل ﴿وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ في أمره ﷺ يعني اختلاف الرماة بعد انهزام المشركين ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ أمر نبيكم بترككم الثغر ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَاتِحِينَ﴾ من انهزام المشركين والغنيمة ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ وهم الذين انهالوا لجمع الغنائم، وتركوا الجبل، وخالفوا أمر الرسول ﷺ ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ وهم الذين ثبتوا مكانهم، حتى نالوا شرف الشهادة ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي كففكم عنهم حتى تحولت الحال ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي يعاملكم معاملة من يمتحنكم بالمصائب، ليظهر ثباتكم على الإيمان ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ تفضلاً لما علم من ندمكم، والمراد بالعفو هنا عدم العقوبة ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ التوین للتفخيم أي ذو منّ وفضلٍ عظیم على عباده المؤمنين.

﴿إِذْ تَصْعَدُونَ﴾ متعلق بصرفكم، والإصعاد الذهاب في الأرض، أصعد ذهب أينما توجه ﴿وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ أي لا يقف أحد لأحد، ولا ينتظره، ولا يلتفت إلى ما وراءه، وهو غاية انهزامهم، يقال: فلان لا يلوي على شيء أي لا يعطف ولا يلتفت إليه ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ يقول إليّ يا عباد الله، أنا رسول الله، وإيراده بعنوان

الرسالة، لتعظيم شأنه ﷺ توبيخ للمنهزمين ﴿فِي آخِرَتِكُمْ﴾ أي من ورائكم يقال جئت في آخر الناس وأخراهم فالمعنى كان ﷺ يدعوهم وهو واقف في آخرهم ﴿فَأَثْبِتْكُمْ﴾ أي فجازاكم الله بما صنعتم، والتعبير بالإثابة من باب التهكم على حد قولهم: «تَحِيَّةُ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ» ﴿غَمًّا يَغْمِرُ﴾ أي غمًّا على غم^(١)، بالقتل، والجراح، وظفر المشركين، والإرجاف بقتل النبي ﷺ وفوت الغنيمة، فالتنكير للتكثير ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ أي فجازاكم على عصيانكم غمًّا متصلاً بغم، لتتمرنوا على الصبر في الشدائد، فلا تحزنوا على ما فاتكم من الظفر والغنيمة، وعلى ما أصابكم من الجراح والهزيمة، عقوبة لكم ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ عليم بأعمالكم، وبما قصدتم بها.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَاعَسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٩﴾﴾ .

(١) هذا ما ذهب إليه شيخ المفسرين الإمام الطبري أن المعنى: غمًّا على غم، فتكون الباء بمعنى «على» ورجح هذا القول ابن القيم والحافظ ابن كثير، وقيل المعنى: جازاكم على صنيعكم غمًّا بسبب غمكم الرسول ﷺ ومخالفتكم أمره، فيكون ذلك عقوبة لهم، وجزاء وفاقاً على ما أدخلوه من الغم على رسول الله ﷺ، ولعل هذا الرأي أظهر والله أعلم.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ﴾ عطف على فأثابكم، والخطاب للمؤمنين ﴿مِنْ بَعْدِ
الْفَيْءِ﴾ الذي اعتراكم ﴿أَمْنَةً﴾ مصدر كالمِنْعَةِ ﴿فُعَاسًا﴾ وذلك أن
المشركين لما انصرفوا يتوعدون المسلمين بالرجوع، فلم يأمنوا كرتهم،
وكانوا تحت السلاح متأهبين للقتال، فأنزل الله عليهم أمانة، فأخذهم
النعاسُ، وهو النوم الخفيف، وفائدة النوم أن السهر يوجب الضعف
والكلال، والنوم يفيد عودة القوة والنشأة ﴿يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ فيه إشعار
بأنه لم يغش الكل. عن أبي طلحة قال: كنت فيمن تغشاه النعاسُ يوم
أُحد، سقط سيفي من يدي مراراً وأخذه^(١) ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾
هم المنافقون أوقعتهم أنفسهم في الهموم، أو ما يهتُمُّمُ إِلَّا هُمْ أَنْفُسُهُمْ
وطلبُ خلاصها ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أي والحال أنهم يظنون
به تعالى غير ظن الحق الذي يجب أن يظن به سبحانه ﴿يَقُولُونَ﴾ أي
يقول بعضهم لبعض على سبيل الإنكار ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ هل لنا
مما أمر الله ووعد من النصر والظفر نصيب قط ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ أي
إن الشأن والغلبة الحقيقية لحزب الله وأوليائه، وغلبة الكفار على المسلمين
ليس بنصر، لأن النصر ما كانت عاقبته سليمة، والمسلمون وإن انهزموا في
الحال فالعاقبة للمتقين، فالنصر لهم في الحقيقة، فإن حزب الله هم
الغالبون، وأما قول الكفار: «لو كان هذا رسول الله لما سلط عليه الكفار»
فهذا ظن فاسد، لأن الله يتلى عباده بما شاء، ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي
يضمرون فيها أو يقولون فيما بينهم بطريق الخفية ﴿مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ﴾ أي
يقولون مظهرين النصر، مبطنين الإنكار والتكذيب ﴿يَقُولُونَ﴾ في أنفسهم،
أو إذا خلا بعضهم إلى بعض ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ كما وعد محمد
﴿مَا قَاتَلْنَا هُنَا﴾ أي لما غلبنا، ولما قُتِلَ من قُتِلَ منا في هذه المعركة، عن
الزبير قال: رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف، أرسل الله تعالى

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم ٣٠٠٨.

علينا النوم، فما منا رجلٌ إلا ذقنه في صدره، فوالله إني لأسمع قول: «معتب بن قشير» ما أسمعُه إلا كالحُلْمِ «لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قُتِلنا ههنا» فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله تعالى هذه الآية^(١) ﴿قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﴿لَوْ كُنْتُمْ فِي يُبُوتِكُمْ﴾ أي لو لم تخرجوا إلى أحد، وقعدتم في المدينة ﴿لَبَرَزَ﴾ لخرج لسبب من الأسباب الداعية إلى البروز ﴿الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ في تلك المعركة ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ إلى مصارعهم ولم تنفعه الإقامة بالمدينة قطعاً، فإن قضاء الله لا يردُّ ولم ينبجُ منه أحد ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي ليعاملكم معاملة من يتبلي ما في صدوركم من الإخلاص، والنفاق، وهو علة لفعل مقدر، كأنه قيل: فَعَلَّ مَا فَعَلَ لمصالح جمّة وليبتلي الخ ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وليكشفه ويميزه من مخفيات الأمور، ويذكر الصدرُ مع الإسلام، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ والقلب مقر الإيمان، والفؤاد مشرق المشاهدة، واللبُّ مقام التوحيد وعلى هذا تؤول لبيتلي إسلامكم، وليمحّص إيمانكم، وربما يقال: عبّر بذلك للفتنُ بناءً على أنّ المراد بالجمعين واحد ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي السرائر الخفية التي لا تكاد تفارق الصدور، والجملة حال أي فعل ما فعل والحال أنه تعالى غني عن الابتلاء، محيط بخفيات الأمور، وفيه وعد ووعيد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾ أي هربوا منكم فهو خطاب لمن كان مع الرسول ﷺ ﴿يَوْمَ اتَّخَفَى الْجَمْعَانِ﴾ جمع الرسول ﷺ وجمع أبي سفيان للقتال بأحد ﴿إِنَّمَا أَسْتَرْهُمْ الشَّيْطَانُ﴾ أي إنما كان السبب في انهزامهم، أن الشيطان طلب منهم الزلل فأطاعوه، وهي الخطيئة، وذلك بإلقاء الوسوسة في قلوبهم ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ من الذنوب التي هي المخالفة لأمر النبي ﷺ وترك المركز، والحرص على الغنيمة، والذنب يجر الذنب، كما

(١) أخرجه ابن إسحق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ٤٢٧/١.

أن الطاعة تجر الطاعة، لأن مخالفة أمره ﷺ سبب لهم الهزيمة ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ تجاوز عنهم لتوبتهم واعتذارهم، أعاد سبحانه ذكر العفو تأكيداً لطمع المذنبين فيه، ومنعاً لهم عن اليأس وتحسيناً للظنون وكان المتولون أكثر القوم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بعقوبة المذنب ليتوب.

﴿يَتَّيِبُنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَآ تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي ۖ وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتْتِمَّتْ لِمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتْتِمَّتْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَىٰ اللَّهِ تُحْشَرُونَ ۗ﴾ .

قوله تعالى: ﴿يَتَّيِبُنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَآ تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني المنافقين، وهم القائلون: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ وإنما ذكر كفرهم صريحاً، لمباينة حالهم لحال المؤمنين، وتنفيراً عن مماثلتهم، وفيه دليل على أن الإيمان ليس عبارة عن مجرد الإقرار باللسان، بل هو تصديق وقول وعمل ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ في المذهب، أي قالوا لأجلهم ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إذا سافروا فيها للتجارة أو غيرها قال الزجاج: إذا ههنا لمجرد الوقت، أي حين ضربوا ﴿أَوْ كَانُوا غُرَىٰ﴾ جمع غاز وإنما لم يقل: أو غزوا، للإيذان باستمرار اتصافهم بعنوان كونهم غزاة ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾ بأن لم يسافروا أو لم يغزوا ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ بل كانوا يبقون أحياء بمضمونه كما أنه المنكر على قائله ألا يرى قوله عز وجل: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ اللام لام العاقبة أي قالوا ذلك واعتقدوه، ليكون ذلك حسرة وغمماً، وحنناً في قلوبهم ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي ۖ وَيُمِيتُ﴾ ردّ لقولهم الباطل، أي هو سبحانه المؤثر في الحياة والممات وحده، من غير أن يكون للإقامة

والسفر، مدخل في ذلك، فإنه تعالى يحيي المسافر والمحارب، مع اقتحامهما لموارد الحتوف، ويميت المقيم والقاعد مع حيازتهم لأسباب السلامة والراحة، ولا محيص عما قدّر الله، وفيه المنع عن التخلف عن الجهاد ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تهديد للمؤمنين على أن يماثلوا المنافقين، وترغيب لهم في الطاعة، لأن ابتلاء الله كعلمه، يستعمل في القرآن للمجازاة على العمل، ولا حاجة لله عزّ وجلّ للامتحان والاختبار.

﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ أي في سبيله وأنتم متلبسون به فعلاً ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ جواب القسم والمعنى: إن السفر، والغزو في سبيل الله، ليس ممّا يجلب الموت، وإن وقع ذلك في سبيل الله، فمّا تنالون من المغفرة والرحمة بالموت، خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها، وهذا ترغيب للمؤمنين في الجهاد، وفيه تعزية لهم وتسلية عما أصابهم في سبيل الله، وقدم القتل على الموت، لأنه أكثر ثواباً، وأعظم عند الله كما قال الشاعر:

فإن كانت الأبدان للموت أنشئت فقتل امرئ بالسيف - والله - أفضل

﴿وَلَيْنَ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ على أي وجه اتفق هلاككم، حسب تعلق الإرادة الإلهية ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ الرحيم الواسع الرحمة ﴿تُحْشَرُونَ﴾ لا إلى غيره فيجازي كلاً منكم بعمله، ولا يظلم ربك أحداً.

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده. وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿١٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ والباء متعلق بـ«لنت» فدمت للقصر، و«ما» مزيدة للتأكيد، والتنوين للتفخيم، أي

فبرحمة عظيمة كائنة من الله تعالى ﴿لَيْتَ لَهُمْ﴾ أي كنت لئن الجانب لهم، وعاملتهم بالرفق والتلطف، بعدما كان منهم ما كان، أفاد الكلام فائدتين: إحداهما: شجاعته ﷺ والثانية: رفقته حيث ثبت حتى كَرَّ عليه أصحابه، ثم ما زجرهم ولا عتفهم على الفرار، بل آسأهم في الغم ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا﴾ أي خشن الجانب، شرس الأخلاق، جافياً في المعاشرة ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ قاسيه، وفي الكلام حذف، أي لو كنت كذلك ولم تلن لهم ﴿لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ لتفرقوا عنك، ولم يسكنوا إليك، ولم ينتظم أمر ما بعثت به من إرشادهم إلى صراط مستقيم ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ فيما يتعلق بحقوقك كما عفى الله عنهم ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما يتعلق بحقوقه سبحانه، إتماماً للشفقة، وإكمالاً للبرِّ بهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ في أمر الحرب إذ الكلام فيه، أو فيما يصح أن يُشاور فيه استظهاراً لرأيهم، وتطبيياً لنفوسهم، وتمهيداً لسنة المشاورة للأمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ قال ﷺ: أما إن الله ورسوله لَعَنَتَانِ عنها، ولكن الله جعلها رحمة لأمتي، فمن استشار منهم لم يعدم رشداً، ومن تركها لم يعدم غيًّا^(١). وفي الحديث: «ما تشاور قومٌ إلا هُدُوا لأرشد أمرهم»^(٢) ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ عقيب المشاورة على شيء، واطمأنت به نفسك ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي فاعتمد عليه وثق به، وفوض أمرك إليه، فإنه الأعلم بما هو الأصلح، أصل التوكل إظهار العجز والاعتماد على الغير، وهو عندنا على الله سبحانه، ولا ينافي مراعاة الأسباب بل يكون بمراعاتها مع تفويض الأمر إليه تعالى، وفي الحديث: «اعقلها وتوكل»^(٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه، الواثقين به، فينصرهم ويرشدهم إلى ما هو خير لهم، لأنه سبحانه الملجأ الأعظم، الذي لا تنقضي الحاجة إلا عند بابه.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، وابن عدي في الكامل.

(٢) رواه الطبري في تفسيره.

(٣) الحديث رواه الترمذي رقم ٢٥١٩ وسببه أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: أطلق ناقتي وأتوكل؟ فقال له ﷺ: «اعقلها وتوكل» وانظر مع الأصول ٧٩٢/١١.

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ﴾ كما نصركم يوم بدر ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلا أحد يغلبكم، سيقت لإيجاب التوكل عليه تعالى، والترغيب لطاعته والتحذير عن معصيته ﴿وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ﴾ كما خذلكم يوم أحد ويمنعكم معونته ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ﴾ استفهام إنكاري مفيد لانتفاء الناصر بطريق المبالغة ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد خذلانه تعالى ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ المراد بهم جنس المؤمنين، لأن الأمر كله لله، ولا راداً لقضائه، ولا دافع لحكمه، فيجب أن يتوكل العبد في كل الأمور على الله تعالى لا على غيره.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُولَ وَمَنْ يَفْعَلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٦﴾ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَنَهُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٦٧﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرَاتِهِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُولَ﴾ أي وما صحَّ لنبي ولا استقام أن يخون في الغنائم، فإن النبوة تنافي الخيانة، يقال: غل، من المغنم: إذا أخذه خفية عن ابن عباس أنه قال: نزلت هذه الآية في قطيفة فقدت يوم بدر، فقال بعض المنافقين: لعلَّ رسول الله ﷺ أخذها^(١). ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يأتي بالذي غلَّه بعينه، يحمله على عنقه، أخرج الشيخان عن أبي هريرة قال: قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم، فذكر الغلول فعظمه، وعظم أمره، حتى قال: «لا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رِقْبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنَيْتَنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً قَدْ أْبْلَغْتِكَ...»^(٢) الحديث ولعل السر في ذلك، أن يفضح به على رؤوس

(١) الحديث أخرجه أبو داود، والترمذي في التفسير ٢١٤/٥.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الجهاد ١٢٩/٦ ومسلم في الإمارة رقم ١٨٣١ وأحمد في المسند ٤٢٦/٢.

الأشهاد، زيادة في عقوبته ﴿ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ يعني تعطى جزاء ما كسبت وافياً، خيراً أو شراً، قليلاً أو كثيراً، وضع الكسب موضع الجزاء، تحقيقاً للعدل ببيان ما بينهما من تمام التناسب ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بزيادة عقاب، أو نقص ثواب.

﴿ أَفَمِنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ ﴾ رضاء الله، أي سعى في تحصيله، بفعل الطاعات، وترك المنكرات ﴿ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ ﴾ أي غضب عظيم كائن ﴿ مِّنْ اللَّهِ ﴾ تعالى، والمراد بمن ﴿ أَتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ ﴾: المؤمنون، والمراد بمن ﴿ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ ﴾: المنافقون، وهم الذين باؤوا بسخط الله وغضبه، وقيل: الأول فيمن لم يغلّ، والثاني فيمن غلّ، والقول الأول أصح وأظهر ﴿ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمَ ﴾ أي مصيره ذلك بيان لحال من باء بسخط ﴿ وَيَبْسُ الْمَصِيرُ ﴾ ونظير هذه الآية: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾.

﴿ هُمْ ﴾ عائد على الموصولين باعتبار المعنى ﴿ دَرَجَاتٍ ﴾ طبقات متفاوتة ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ في علمه تعالى وحكمه، شُبِّهوا في تفاوت الأحوال بالدرجات، إيداناً بأن بينهم تفاوتاً ذاتياً كالدرجات ﴿ وَاللَّهُ بِصِيرَاتِهِمَّاعْمَلُونَ ﴾ عالم بأعمالهم ودرجاتهم، ويجازيهم على حسبها.

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١٦٦).

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي أنعم وتفضل وأحسن على المؤمنين من أمة محمد ﷺ، وتخصيصهم مع أن نعمة البعثة عامة للناس لزيادة انتفاعهم بها ﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي من جنسهم، لا ملكاً ولا جنياً، والامتنان بذلك إما لحصول الأُنس فيسهل التلقّي، وتزول

الوحشة والنفرة الطبيعية التي تكون بين الجنسين المختلفين ﴿يَتَلَوُا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُرَكِّبُهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي يقرأ عليهم القرآن، ويظهرهم من رجس الكفر والعصيان، ويعلمهم آيات الذكر الحكيم، والسنة النبوية المطهرة التي جاء بها سيد المرسلين وهي الحكمة ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي كانوا من قبل بعثة الرسول ﷺ في ضلال ظاهر، لا شبهة في كونه ضلالاً.

﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أِنَّا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَى الْجَمْعَانَ فَيَا ذَنِّ اللَّهَ وَيَلْعَلُمُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٨﴾ وَيَلْعَلُمُ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَّاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٦﴾﴾

﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً﴾ الهمزة للتقرير والتفريع، والواو عاطفة على ما سبق من قصة أحد، ولَمَّا ظرف بمعنى «حين»، والمراد من المصيبة ما أصابهم يوم أحد ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ يوم بدر من قتل سبعين، وأسر سبعين، وجعل ذلك مثلين بجعل الأسر كالقتل، لأنهم قادرون على قتلهم، والمعنى: أحياناً أصابكم من المشركين، نصف ما أصابهم منكم، جزعتم ﴿قُلْتُمْ أِنَّا هَذَا﴾؟ وقلتم من أين أصابنا هذا، وقد تقدم الوعد بالنصر؟ وكونُ مصيبة عدوهم ضعف مصيبتهم، ممَّا يهونُ الخطب، ويورث السلوة ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ تبيكت لهم بيان أن ما نالهم إنما هو من جهتهم، بتركهم المركز وحرصهم على الغنيمة، فالوعدُ بالنصر كان

مشروطاً بالثبات والطاعة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومن جملة النصر عند الطاعة، والخذلان عند المخالفة.

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ ﴾ جمع المسلمين، وجمع المشركين، يريد يوم أحد ﴿ فَيَاذَنَ اللَّهُ ﴾ فهو كائن بقضائه لمخالفتكم الأمر ﴿ وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ المراد بالعلم التمييز أي يميّز أهل الإيمان من أهل النفاق.

﴿ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ إعادة الفعل لتشريف المؤمنين وتنزيههم عن الانتظام في سلك المنافقين، والمعنى: وما أصابكم يومئذ فهو كائن لتمييز الثابتين على الإيمان، والذين أظهروا النفاق، وفيه تطييبٌ لأنفس المؤمنين، بإزالة مرارة التقرّيع، أي أنه سبحانه قادر على نصركم بعد فلا تيأسوا ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ﴾ عطف على نافقوا وهم «عبد الله بن أبي»، وأصحابه حيث انصرفوا يوم أحد ﴿ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا ﴾ عنا العدو، بتكثير سوادنا، أو ادفعوا عن أهليكم وبلدكم، إن لم تقاتلوا في سبيل الله ﴿ قَالُوا ﴾ مستهزئين ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ ﴾ أي لو نعلم ما يصح أن يُسَمَّى قتالاً لاتبعناكم فيه، لكن ما أنتم عليه ليس بقتال، بل إلقاء بالأنفس إلى التهلكة ﴿ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ لانخذالهم، وكلامهم هذا واعتذارهم على وجه الدغل، أمارات ظهرت منهم، وهو مؤذن بكفرهم، فإنّ تقليل سواد المسلمين تقوية للمشركين ﴿ يَقُولُونَ يَا فَوْهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ المعنى: يتفهون بقول لا وجود له، فإنهم أظهروا فيه أمرين: الأول عدم العلم بالقتال، والآخر الاتباع على تقدير العلم، وقد كذبوا فيهما، حيث كانوا عالمين به، غير ناوين للاتباع، وإضافة القول إلى الأفواه تأكيد وتصغير لشأنهم ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ من النفاق وما يخلو به بعضهم إلى بعض من المكر والخديعة.

﴿ الَّذِينَ قَالُوا ﴾ المراد بهم «عبد الله بن أبي»، وأصحابه ﴿ لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ لأجلهم، يريد من قُتل يوم أحد من جنسهم وأقاربهم ﴿ وَقَعَدُوا ﴾ أي قالوا قاعدين عن القتال ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا ﴾ في القعود ﴿ مَا قَاتِلُوا ﴾ كما لم تُقتل، وفيه

إيذان بأنهم أمروهم بالانخزال، حين انخذلوا وأغوهم ﴿قُلْ فَأَدْرَأُ عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين على دفع القتل، عمن كُتِبَ عليهم، فادفعوا عن أنفسكم الموت وأسبابه فإنه أحرى بكم، والقعود غير مغن عن الموت، فإن أسباب الموت كثيرة، والحذر لا يدفع شيئاً من القدر.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّ مِنْهُمْ شَيْءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ .

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ كلام مسوق لبيان أن القتل الذي يحذرونه، ويحذرون الناس منه، هو أجلُّ المطالب عند المؤمن، نزلت هذه الآيات في شهداء أحد^(١)، الذين قتلوا في تلك المعركة، وفيهم

(١) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر، ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها وتأوي إلى فناديل من ذهب، معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أننا أحياء في الجنة لئلا يزهدوا في الجنة، ولا ينكلوا عند الحرب؟ فقال الله: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾. الآية رواه أبو داود في الجهاد رقم ٢٥٢٠.

«حمزة بن عبد المطلب» عم الرسول ﷺ ﴿بَلْ أَحْيَاءُ﴾ مستمرون على ذلك ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ذوو زلفى بالقرب والشرف ﴿يُرْزَقُونَ﴾ من الجنة، وهو تأكيد لكونهم أحياء.

﴿فَرِحِينَ﴾ أي مسرورين ﴿يَمَّا آتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهو شرف الشهادة، والفوز بالحياة الأبدية، والتمتع بنعيم الجنة ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ يسرون بالبشارة وأصل الاستبشار: طلبُ البشارة، إلا أن المعنى هنا هو الفرح التام ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي بإخوانهم المؤمنين، الذين لم يقتلوا فيلحقوا بهم ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ والمعنى أنهم بقوا بعدهم وهم قد تقدموهم ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي أنهم يستبشرون بما تبين لهم من أمر الآخرة، وحال من تركوا خلفهم من المؤمنين، إذا ماتوا أو قتلوا كانوا أحياء، حياة لا يكدرها خوف ولا حزن، وفيها حث على الجهاد، وترغيب في الشهادة، وامتداح لمن يتمنى لإخوانه، مثل ما أنعم الله عليه.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ كرهه للتأكيد، وليتعلق به قوله بنعمة ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ ثواباً لأعمالهم ﴿وَفَضْلٍ﴾ زيادة عليه كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وتنكيرهما للتعظيم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والمراد منهم إما الشهداء وإما كافة أهل الإيمان، للإشعار بأن كل مؤمن يستحق الأجر، وليس مخصوصاً بالشهداء.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ صفة مادحة للمؤمنين أي أطاعوا الله ورسوله ﴿بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ بامثال الأوامر ﴿مِنْ أَمَامِهِمْ الْقَرْحُ﴾ الجراحات ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا﴾ الجمع بين الوصفين، للمدح والتعليل ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ روى ابن إسحق وغيره، أن أباسفيان وأصحابه، لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء، ندموا وهموا بالرجوع، فبلغ الأمر رسول الله ﷺ، فأراد أن يرهبهم، فخرج بسبعين رجلاً حتى بلغوا حمراء الأسد، وهو على بعد ثمانية أميال من المدينة، وكان بأصحابه قرح فتحاملوا، وألقى الله تعالى الرعب في قلوب المشركين، فذهبوا فنزلت الآية، وهذا من المعجزات،

لأن المسلمين قد انهزموا، والعادة جارية بأنه إذا انهزم أحد الخصمين، يحصل في قلب الغالب قوةً وشدة، وفي قلب المغلوب خوفٌ وخشية، والحال أنه عز وجل قلب القضية ههنا، فهو معجز خارقٌ للعادة.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ روي عن مجاهد وقتادة وعكرمة وغيرهم أنهم قالوا نزلت هذه الآية في «غزوة بدر الصغرى»، وذلك أن أبا سفيان حين أراد أن ينصرف، قال يا محمد موعدنا موسم بدر القابل، فقال ﷺ إن شاء الله، فلما كان القابل، خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل حرَّ الظهران، فألقى الله تعالى الرعب في قلبه، ولقي «نعيم ابن مسعود»، فقال له أبو سفيان: إني واعدتُ محمداً أن نلتقي بموسم بدر، وإن هذا عام جدب لا يصلحنا، وأكره أن يخرج محمد، ولا أخرج أنا فيزيدهم جرأة، فالحق المدينة فنبطهم، ولك عندي عشرة من الإبل، فأتى نعيم المدينة ووجد المسلمين يتجهزون للخروج، فقال لهم: تريدون أن تخرجوا إليهم، وقد جمعوا لكم؟ فوالله لا يفلتُ منكم أحد، فكره أصحاب الرسول ﷺ الخروج فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لأخرجن ولو وحدي»، فخرج ومعه سبعون، وهم يقولون: «حسبنا الله ونعم الوكيل» ففي هذا نزلت الآية ﴿فَأَخْشَوْهُمْ﴾ أي فخافوهم ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ والمعنى أنهم لم يلتفتوا إليه ولم يضعفوا بل ثبت يقينهم بالله سبحانه وازداد إيمانهم، وأظهروا حمية الإسلام، وهو دليل على أن الإيمان يتفاوت زيادةً ونقصاناً ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أي كافينا الله، من أحسبه إذا كفاه ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أي نعم الموكل إليه هو تعالى: وفي الحديث: «إذا وقعت في الأمر العظيم فقولوا: حسبي الله ونعم الوكيل»^(١).

(١) أخرجه ابن مردويه، وذكره ابن كثير في تفسيره من حديث أنس بن مالك مرفوعاً ٤٤٠/١ وفي صحيح البخاري ما يؤيده، فقد روى عن ابن عباس ١٧٢/٨ أنه قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل.

﴿فَانْقَلَبُوا﴾ فرجعوا من بدر ﴿بِنِعْمَةِ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ وهي العافية والسلامة والثبات على الإيمان، وطاعة الله ورسوله ﴿وَفَضَّلِ﴾ أي ربح في التجارة، فإنهم لما أتوا بدرأً وكان في أيام الموسم، اتجروا وربحوا ﴿لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ﴾ من كيد عدو، وجراحة، وقتالٍ ﴿وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ بجرأتهم وخروجهم إلى وجه العدو طلباً لرضاء الله، ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ قد تفضل عليهم بالتوفيق فيما فعلوا، وحفظهم عن كل ما يسؤهم، مع إصابة النفع، وفيه تحسير لمن تخلف عنهم.

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ﴾ إشارة إلى المثبتين، والخطابُ للمؤمنين ﴿الشَّيْطَانُ﴾ إبليس ﴿يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي المنافقين، والقاعدين عن الخروج مع الرسول ﷺ، وقيل: المعنى «يخوفكم بأوليائه» وعلى هذا المعنى أكثر المفسرين، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ الضمير للناس ﴿وَخَافُونَ﴾ في مخالفة أمري، فجاهدوا مع رسولي، والخطابُ للقاعدين ﴿إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يقتضي إيثار خوف الله، على خوف الناس، ويستدعي الأمن من شر الشيطان.

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْباً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٨) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُكَلِّمُهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُكَلِّمُهُمْ لِيَزِدَّادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (١٧٩) ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطَّلِعَ عَلَيْكَ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٨٠) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَآءِ أَنفُسِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١٨١)

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ﴾ توجيه الخطاب إلى الرسول ﷺ لتشريفه بتخصيصه بالتسليية، والإيذان بأصالته في تدبير أمور الدين والاهتمام بشؤونه، والمراد بالموصول أما المنافقون قاله مجاهد، وإمّا قوم من المرتدين قاله علي الجبائي وإمّا العموم قاله الحسن ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ يقعون فيه سريعاً، حرصاً عليه، وشدة رغبتهم فيه، ولتضمن المسارعة معنى الوقوع تعدت بفي دون إلى ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً﴾ تعليل للنهي، وتكميل للتسليية أي لن يضروا أولياء الله ضرراً ما ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْباً فِي الْآخِرَةِ﴾ لما هم فيه من الانهماك في الكفر، وتمادي طغيانهم، وموتهم على الكفر وصيغته الاستقبال ﴿يريد الله﴾ للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها، ويرجع إلى دوام منشأ هذا المراد وهو الكفر، وفي الآية دليل على أن الخير والشر بإرادة الله تعالى ﴿وَلَهُمْ﴾ مع هذا الحرمان ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أخذوا الكفر بدلاً من الإيمان رغبة فيما أخذوه وإعراضاً عما تركوه، ولهذا وضع اشتروا موضع بدلوا ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لما جرت العادة باغتناب المشتري بما اشتراه، وسروره بتحصيله عند كون الصفقة رابحة، وبتألمه عند كونها خاسرة، وصف عذابهم بالشدة والألم، والآية تكرير للتأكيد، أو تعميم للكفرة بعد تخصيص من نافق من المتخلفين.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ خطاب للرسول ﷺ أو لكل من يحسب، والإملاء والإمهال: إطالة العمر، وقيل تخليتهم وشأنهم، من أملى لفرسه إذا أرخى له الطول - أي الحبل - ليرعى كيف شاء ﴿إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ تعليل لما قبلها، واللام في (لهم) لام الإرادة، وعند المعتزلة لام العاقبة، والآية حجة لأهل السنة، في عدم وجوب الأصلح ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي لهم عذاب مؤلم موجه، مع الإهانة

والتحقير لتكبرهم عن طاعة الله، ولمَّا تضمن الإماء التمتع بطيبات الدنيا وزينتها، وذلك مما يستدعي التعزز، وصف عذابهم بالإهانة، ليكون جزاؤهم وفاقاً لعملهم، والآية نزلت في مشركي مكة، وهو المروي عن مقاتل، وقيل في بني قريظة قاله عطاء.

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ كلام مستأنف مسوق لوعده المؤمنين، ووعيد المنافقين، والمراد بالمؤمنين المخلصون، والمراد بما هم عليه: اختلاط بعضهم ببعض، واستواؤهم في إجراء الأحكام الدنيوية عليهم ﴿ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ أي ما يتركهم الله تعالى على ذلك الاختلاط، بل يوحي إلى الرسول ﷺ بأحوالهم، وابتليهم بالتكاليف التي لا يقدر عليها إلا الخُلص، كبذل الأموال، والأنفس في سبيل الله، حتى يعزل المنافق من المؤمن، وتعلق التمييز بالخبث إشعار بردائة ذلك الجنس، فإن الملقى من الشيين هو الأدون واختلفوا بما يحصل التمييز، فقيل: بالمحن والمصائب، وقيل بإعلاء كلمة الله، وقيل بالوحي، ولهذا أردفه بقوله ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ تمهيد لبيان المميز الموعود وقوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ إشارة إلى كيفية وقوعه على سبيل الإجمال، والإظهار في الموضوعين لتربية المهابة، فالمعنى: ما كان الله ليترك المؤمنين، على الاختلاط بالمنافقين، بل يخرج المنافقين من بينهم، وما يفعل ذلك باطلاعكم على ما في قلبهم، ولكنه تعالى يجتبي لرسالته من يشاء، فيوحي إليه ويخبره ببعض المغيبات، واجتباء الله تعالى لرسله، تخصيصه إياهم بفيض إلهي، بلا سعي من العبد ﴿ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ سوق النظم الكريم، للإيمان بالرسول ﷺ، ولكنه ورد بالتعميم للإشعار بأن ذلك مستلزم للإيمان بالكل، لأنه مصدق لما بين يديه من الرسل ﴿ وَإِن تَوَمَّنُوا ﴾ بكل ما جاء به ﷺ حق الإيمان ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ النفاق أو المخالفة في الأمر والنهي ﴿ فَلَكُمْ ﴾ بمقابلة ذلك الإيمان ﴿ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ ﴾ بيان لحال البخل، ووخامة عاقبته أي لا يظن أولئك البخلاء الذين يمنعون زكاة أموالهم، ولا يمدون يد العون للفقراء والمساكين ﴿ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ إيراد ما بخلوا به، بعنوان إيتاء الله إياهم من فضله، للمبالغة في بيان سوء صنيعهم، فإن ذلك من موجبات بذله في سبيله تعالى، والبخلاء يمنعون حقوق الله كالزكاة، والفقرة، والأضحية، والنفقات، أو بحكم المروءة نحو الصدقة والهدية، وأشد البخل الإمساك عن نفسه، بأن لا يأكل، أو لا يلبس، أو لا يتداوى، وهذا البخل يسمى شحاً^(١) ﴿ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ ﴾ أي لا يحسبن البخلاء بخلهم هو خيراً لهم ﴿ بَلْ هُوَ شَرٌّ عَظِيمٌ ﴾ لاستجلاب العقاب عليهم، ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ الكلام عند الأكثرين على ظاهره^(٢) أي سيكون هذا الذي بخلوا به طوقاً في أعناقهم يوم القيامة، وقال بعضهم: سيلزمون وبال ما بخلوا به إزام الطوق ﴿ وَلِلَّهِ ﴾ وحده ﴿ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي وله ما فيهما مما يتوارث به أهلها من مال وغيره، فما لهم يبخلون عليه، ولا ينفقون في سبيله تعالى، أو أنه تعالى يرث منهم ما يمسكون بهلاكهم وتبقى عليهم الحسرة والعقوبة ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ من المنع والبخل، فيجازيكم على ذلك.

(١) هذا أشع أنواع البخل، أن يبخل من الإنفاق على نفسه، كما قال الشاعر في شخص

يدعى عيسى:

يُقْتَرُّ عَيْسَى عَلَي نَفْسِهِ وَلَيْسَ يَبَاقٍ وَلَا خَالِدٍ
فَلَوْ يَسْتَطِيعُ لَتَقْتِيرَهُ تَنَفَّسَ مِنْ مَنَحَرٍ وَاحِدٍ

(٢) أخرج البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته، مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع - أي ثعباناً كبيراً ضخماً - يطوقه فيأخذ بلهزمتيه - أي شدقيه - ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا الآية ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ ﴾ الآية.

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨٧﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٨﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿١٨٨﴾ ﴿١٨٨﴾ لَتَبْلُوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ آوَتْوَا إِلَى الْكِتَابِ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِن عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٩﴾ ۞

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ قاله اليهود لما سمعوا قوله تعالى: ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ قالوه على سبيل الطعن والاستهزاء^(١)، وظاهر الآية يدل على أن القائلين هذا

(١) روي في سبب نزول هذه الآية، أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه دخل بيت مجتمع اليهود، فوجدهم قد اجتمعوا على عظيم فيهم اسمه «فِنْحاص» كان من علمائهم وأحبارهم، فقال له أبو بكر: اتقوا الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله، جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، فقال له فِنْحاص: والله يا أبا بكر، ليس لنا من حاجة إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، ولو كان غنياً عتاً ما استقرض منا!! فغضب أبو بكر وضرب وجهه فِنْحاص، فَشَجَّهُ شَجَّةً عنيفة، وقال له: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينكم، لضربت عنقك يا عدو الله، فذهب فِنْحاص إلى رسول الله ﷺ يشكو أبا بكر، وجاء أبو بكر فأخبر =

كانوا جماعة، ومعنى الآية: أنه تعالى سمع مقاتلهم ولم يخف عليه أمرهم، وأنه عز وجل أعدَّ لهم ما يكفيهم من العذاب ﴿سَكَتُتُبُ مَا قَالُوا﴾ في صحائف الحفظة أو سنحفظه أي لا نهمله ولا ننساه لأنه كفر بالله، واستهزاء بالقرآن وقرنه تعالى بقوله ﴿وَقَتَلَهُمُ الْآبِيَاءَ﴾ إيذاناً بأنهما أخوان في العظم، وتنبهاً على أن من اجترأ على قتل الأنبياء، لم يستبعد منه أمثال هذا القول، ونسبة هذا القتل إلى هؤلاء، باعتبار رضائهم بقتل أسلافهم ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ في اعتقادهم أيضاً، ونتقم منهم بسبب هذا القول ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي يقول لهم خزنة جهنم، وإنما أضيف إلى الله تعالى، لأنه بأمره، والحريق بمعنى المُحْرِق، والدُّوقُ: إدراك الطعوم، وعلى الاتساع يستعمل لإدراك سائر المحسوسات والأمور العقلية، فيقال: ذقتُ الشقاء، ومرارة العيش.

﴿ذَلِكَ﴾ شهادة إلى العذاب المذكور ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ آيْدِيكُمْ﴾ أي بسبب ما اقترفتموه من قتل الأنبياء، والتفوه بمثل تلك العظيمة وغيرها من الكفر والمعاصي، عبّر بالأيدي عن الأنفس لأن أكثر أعمالها بهن ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي والله تعالى ليس بمعذب لعبيده، والتعبير عن ذلك ينفي الظلم، لكمال نزاهته تعالى عن ذلك، وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى، أو الصيغة هنا للنسبة، أي لا يُنسب إليه ظلم، فالمعنى ليس بذي ظلم، ولا يقع منه ظلم لأحد أصلاً.

﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ المراد من الموصول جماعة من اليهود، ككعب بن الأشرف، ومالك بن حبيّ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ أي أمرنا في التوراة ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾ أي بأن لا نصدّق أحداً ممن ادعى الرسالة ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا

= الرسول بما قاله ذلك الفاجر، فأنكر فحاص تلك المقالة، فنزلت الآية تصديقاً لأبي بكر ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء..﴾ الآية. من تفسير ابن الجوزي ١/٥١٤.

بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ﴿ القربان أصله مصدر كالرجحان، وهو كل ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى، والمراد به هنا تقديم شيء تأكله النار، من كبش، أو حَب، أو طعام، قيل كانت بنو إسرائيل يذبحون الشاة فيضعونها وسط بيتٍ والسقفُ مكشوف، فيدعو نبيهم في البيت وبنو إسرائيل في الخارج، فتنزل نار فتأكله، وقيل إن هذا الشرط كذبٌ على التوراة، من كذب اليهود ﴿ قُلْ ﴾ يا رسول الله تبيكتاً لهم، وإظهاراً لكذبهم ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي يَا بَلِيغَتِ ﴾ أي المعجزات ﴿ وَيَا لَذِي قَلْتُمْ ﴾ أي بالقربان الذي تأكله النار ﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾؟ في قولكم إِنَّا نؤمن بما جاء به، فإن زكريا ويحيى وغيرهما قد جاؤوكم بما قلتم، فما لكم لم تؤمنوا بهم، حتى اجترأتم على قتلهم؟ بيّن الله عز وجل أنهم يطلبون هذه المعجزة على سبيل العناد، لا على سبيل الاسترشاد، ولذلك لم يسعف مطلوبهم.

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ ﴾ شروع في تسلية النبي ﷺ، إثر ما أوحى إليه ما يحزنه من مقالات الكفرة ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ يعني فإن كذبك هؤلاء الكفار، فلا يهولنك أمرهم يا رسول الله، فقد فعلت الأمم السالفة بأنبيائهم كذلك ﴿ جَاءُوا يَا بَلِيغَتِ ﴾ أي المعجزات الواضحات ﴿ وَالزُّبُرِ ﴾ جمع زبور كالرسول، يقال زبرت الكتاب: أي كتبتَه ﴿ وَالكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ أي الكتاب الهادي، وهو القرآن العظيم، المنيرٌ لطريق الحق والهداية والسعادة.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ هذا يدل على أن الأرواح لا تموت بموت الأبدان، لأن ذائق الشيء، لا بد أن يكون باقياً حال حصول الذوق، ولفظ «كل» يقتضي الشمول، بدليل قوله تعالى ﴿ فَصَبَّحُوا مِن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ وذلك يقتضي أن لا يموت الداخلون في هذا الاستثناء فالمعنى: لا يحزنك تكذيبهم، فمرجع الخلق إلى الفناء ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفُّونَ أُجُورَكُمْ ﴾ تعطون جزاء أعمالكم، خيراً كان أو شراً، تاماً وافياً ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي وقت قيامكم من القبور وفي لفظ التوفية، إشارة إلى

أن بعض أجورهم، تصل إليهم قبل ذلك اليوم، وفي الحديث الشريف «القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران»^(١) وقال ﷺ: «إذا مات الرجل عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»^(٢) وهذه الأحاديث الشريفة تثبت الحياة في القبر ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ﴾ بُعد عنها، والزحزحة في الأصل: تكرير الزح، وهو الجذب بعجلة ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ بالنجاة ونيل المراد، والفوز: الظفر بالبغية فاز، يفوز: نجا وظفر بمراده ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ أي لذاتها وزخارفها وشهواتها ﴿إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ المتاع: كل ما ينتفع به، كالطعام، واللباس، وأثاث البيت، مما يُباع ويُشترى، وقد شبهها سبحانه بالمتاع إشارة إلى رداءتها، والغرور: الخداع، غرته الدنيا أي خدعته بزينتها وهذا لمن آثرها على الآخرة، فأما من طلب بها الآخرة فهي متاع بلاغ إلى انتهاء الأجل.

﴿لَتُجْلِبُوا﴾ أي والله لتختبرن، جواب قسم محذوف، وفيه تسلية للرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، عما سيلقونه من جهة الكفار من المكاره، ليوطنوا أنفسهم على احتمالها عند وقوعه، ويقابلوه بالصبر والثبات ﴿فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ بتكليف الإنفاق، وما يصيبه من الآفات ﴿وَأَنْفُسِكُمْ﴾ بالقتل، والأسر، والجراح وما يرد عليها من أصناف المتاعب والمخائف ﴿وَلَسْتُمْ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني اليهود والنصارى، عبّر عنهم بذلك، للإشعار بمدار الشقاق، وهو الكيد والحسد ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا﴾ من هجاء الرسول ﷺ، والظعن في الدين، وإغراء الكفرة على المسلمين، وصد من أراد الإيمان وهجر المؤمنين، والافتراء على الله وعلى الرسول ونحو ذلك ﴿وَإِن

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة رقم ٢٤٦٢.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ٣/١٩٣ ومسلم رقم ٢٨٦٦.

تَصَبَّرُوا ﴿ على تلك الشدائد والمصاعب عند ورودها ﴾ وَتَتَّقُوا ﴿ أي تمسكوا بتقوى الله وطاقته، بحيث يتساوى عندكم وصول المحبوب، ولقاء المكروه ﴾ فَإِنَّ ذَلِكَ ﴿ أي الصبر والتقوى ﴾ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿ أي ممَّا يجب العزم عليه من الأمور، التي ينبغي أن يعزمها كل أحد، لما فيها من كمال المزية والشرف .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ ﴾ بيان لبعض إدايتهم، وهو كتمانهم ما فيه من الشواهد على نبوته ﷺ، أي اذكروا وقت أخذه تعالى ﴿ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا ﴾ الْكِتَابِ ﴿ وهم علماء اليهود والنصارى، ذكروا بعنوان «أوتوا الكتاب» مبالغة في تقييح حالهم، ورمزاً إلى أن أخذ الميثاق كان في كتابهم الذي أوتوه ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ ﴾ الضمير للكتاب، وهو جواب القسم، ينبىء عنه أخذ الميثاق، كأنه قيل لهم: بالله لتبيِّنَنَّهُ ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ وتظهرون ما فيه من الأحكام والأخبار، والتي من جملتها أمر نبوته ﷺ ﴿ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ نهي عن الكتمان بعد الأمر بالبيان، إما للمبالغة في إيجاب المأمور به، وإما لبيان المأمور به أو بالكتمان المنهي عنه، بإلقاء التأويلات الزائفة، والشبهات الباطلة ﴿ فَنَبَذُوهُ ﴾ أي طرحوا ما أخذ منهم من الميثاق الموثق ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ ولم يراعوه ولم يلتفتوا إليه أصلاً، وفيه من الدلالة على أنه يجب على العلماء، أن يبينوا الحق للناس، وأن لا يكتموا منه شيئاً لغرض فاسد، من تسهيل على الظلمة، أو تطيب نفوسهم، أو لجر منفعة، أو دفع أذية

﴿وَأَشْتَرُوا بِهِ﴾ بالكتاب الذي أمروا ببيانه، وثُهِوا عن كتمانهِ أي تركوا ما أمروا به وأخذوا بدله ﴿ثُمَّناً قَلِيلاً﴾ شيئاً تافهاً حقيراً من حُطام الدنيا وأعراضها ﴿فَيْتَسَّ مَا يَشْتَرُونَ﴾ أي ما يختارون لأنفسهم.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ الخطاب له ﷺ أو لكل من يصلح له ﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا﴾ بما فعلوا، روي عن أبي سعيد الخدري قال: إن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ، كانوا إذا خرج رسول الله إلى الغزو، تخلَّفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم، فإذا قدم رسول الله اعتذروا إليه، وحلفوا له، وأحبوا أن يحمَدوا بما لم يفعلوا، فنزلت هذه الآية^(١)، والفرحُ: لذَّةٌ تحصل في القلب بنيل المراد يستعمل في معانٍ أحدها البطر كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ الثاني الرضاء وعليه قوله سبحانه: ﴿كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ والثالث السرور وعليه قوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ أي يحبون أن يحمدهم الناس، لأنهم كانوا يفرحون بما فعلوا، من إظهار الإيمان، وقلوبهم قاسية بالكفر والعداوة ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ تأكيد له، والفاءُ زائدة قال الزجاج: إذا طالت القصة، تعيد حسب ما أشبهها توكيداً، فتقول: لا تظنَّ زيداً إذا جاءك وكلمك بكذا وكذا، فلا تظننه صادقاً، فيفيد لا تظنن توكيداً وتوضيحاً ﴿بِمَفَازٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي ملتبسين بنجاة منه، لأن لباس الزور لا يبقى، ويكشف حال صاحبه، ويفتضح، والمفازة مصدر ميمي بمعنى الفوز والنجاة، والآية للتنبيه على بطلان آرائهم، حيث كانوا يزعمون أنهم ينجون

(١) أخرج البخاري ومسلم أن مروان بن الحكم - وهو أمير المدينة - قال لبوابه: اذهب يارافع إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمَد بما لم يفعل معذباً لعذبين أجمعين!! فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه الآية؟ إنما دعا النبي ﷺ اليهود، فسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمَدوا إليه بما أخبروه عنه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ...﴾ الآية، وانظر فتح الباري ٨/٢٣٣.

بما صنعوا من عذاب الآخرة، كما نجوا به من المؤاخذه الدنيوية، ولذلك كان فرحهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بكفرهم لا غاية له في المدة والشدة.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ له خاصة دون غيره، لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو تعالى قادر على عقوبتهم كيفما يشاء.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٦﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿١٩٨﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا رَبِّكُمْ فَأَمْنًا رَبَّنَا فَأَعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْآبَرَارِ ﴿١٩٩﴾ رَبَّنَا وَءَايَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي في إنشائهما في ذاتهما وصفاتهما، التي تحار فيه العقول ﴿وَاخْتِلَافِ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ﴾ في تعاقبهما وتفاوتهما ﴿لَآيَاتٍ﴾ التنكير للتفخيم، أي لآيات كثيرة عظيمة، دالة على وحدته، وكمال علمه، وعلى عجائب شؤونه تعالى، وفيه رمز إلى أن الآيات الظاهرة - وإن كانت كثيرة في نفسها - إلا أنها قليلة في جنب ما خفي عنها في خزائن الغيب ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي لذوي العقول السليمة، المتفكرين في بدائع صنائع الخالق جل وعلا، الممثلين لقوله سبحانه: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ فإن كل ما ظهر في مظاهر الإبداع، دليل قوي على الصانع المجيد ﴿الذي أتقن كلَّ شيء خلقه﴾.

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ المراد بهم الذين لا يغفلون عنه تعالى، في عامة أوقاتهم، لاطمئنان قلوبهم بذكر الله، حين أيقنوا بأن كل ما سواه، فائض

منه وعائد إليه ^(١) ﴿فَيَمَّا وَقَعُوا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ فالمراد به ذكره تعالى مطلقاً، في جميع الأحوال، وليس المراد الدوام الحقيقي لاستحالاته، بل في غالب أحوالهم، لا يغفلون عنه تعالى ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ استدلالاً واعتباراً وهو أفضل العبادات، لما رُوي عن ابن عباس «تفكر ساعة خير من قيام ليلة» وأصل الفكر إعمال الخاطر في الشيء، والتفكر إنما يكون بالقلب والروح وهو لا يمكن إلا فيما له صورة في القلب، ولهذا فإنه سبحانه خصَّ التفكير في الخلق، ونهى عن التفكير في الخالق، لعدم الوصول إلى كنه ذاته، وصفاته، وقد رُوي عن عبد الله بن سلام قال: «خرج النبي ﷺ على أصحابه وهم يتفكرون، فقال: تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله ^(٢)»، قدّم الذكر على التفكير، للتنبيه على أن العقل لا يفني بالهداية، ما لم يتنور بنور ذكر الله، أي يتفكرون في إبداعهما، بما فيهما من عجائب المصنوعات، ولطائف الحكَم، ويستدلون بذلك على الصانع ووحدته وقدرته وعلمه، لأن عظم آثاره تدل على عظم مبدعها، كما قيل:

وفي كل شيء له آيةٌ تدل على أنه واحدٌ

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ أي يقولون ذلك، وهذا إشارة إلى السماوات والأرض، متضمنة لضرب من التعظيم، أي ما خلقت هذا المخلوق البديع عبثاً عن الحكمة، خالياً عن المصلحة، بل منتظماً لحكم جليلة، ومصالح عظيمة، من جملتها أن يكون مداراً لمعايش المخلوقات،

(١) الذكر على أقسام: ذكرٌ باللسان، وذكرٌ بالأركان، وذكرٌ بالجَنَان يعني القلب، فالذكر باللسان إنما يكون بالتسيح، والتحميد، والتكبير، والتهليل، وحمد الله، والثناء عليه بشتى صيغ الذكر، والذكرٌ بالأركان أن تصير الجوارح والأعضاء مشغلةً بالعبادات، منتهيةً عن المنهيات، والذكر بالقلب أن يتفكر المؤمن في دلائل القدرة والوحدانية، ويتفكر في مخلوقات الله، ليستدل بها على عظمة الخالق جلَّ وعلا كما قال سبحانه: ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً...﴾ الآية.

(٢) أخرجه أبو نُعيم في الحلية، وانظر الفتح الكبير ٣٥/٢.

ومناراً يرشدهم إلى معرفة أحوال المبدأ والمعاد ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي تنزيهاً لك، عما لا يليق بك من الأمور، التي من جملتها خلق ما لا حكمة فيه، ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي احمنا من نار جهنم، كأنهم قالوا: فكّرنا في خلقك، وعرفنا شرك، وأطعنا أمرك، ونزّهناك عما لا ينبغي، فقنا عذاب النار، الذي هو جزاء الذين لا يعرفون ذلك.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ مبالغة في استدعاء الوقاية، وبيان لسببه، وتصدير الجملة بالنداء للمبالغة في التضرع، وتأكيد لها لإظهار كمال اليقين بمضمونها، يقال: أخزاه الله، أي أبعده، وأهانه، وقيل: فضحه ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ المراد بالظالمين الكفار، وضع المظهر موضع المضمّر، للدلالة على أن ظلمهم، تسبّب لإدخالهم النار، فالمعنى: ما للظالمين نصيرٌ من الأنصار.

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ حكاية دعائهم المبني على الدليل السمعي، بعد حكاية دعائهم المبني على التفكير في الأدلة العقلية، وفي تنكير المنادي تعظيم لشأنه، والمراد به الرسول ﷺ، وقيل: القرآن، والأول أظهر وأشهر، وإيثاره على الداعي، للدلالة على كمال اعتناؤه بشأن الدعوة، وتبليغها إلى الداني والقاصي، لأن النداء برفع الصوت، ومعناه نداء منادٍ، كما يقول: سمعتُ زيداً، أي سمعتُ قوله ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ أي لأجل الإيمان، وهذا أصل بديع، يُصَارُ إليه للمبالغة، في تحقق السماع، وللإيذان بوقوعه بلا واسطة ﴿أَنَاءِ امْتُوا﴾ بأن آمنوا ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ بما لكم ومبلّغكم إلى الكمال ﴿فَعَامَتًا﴾ أي فامثلنا أمره، وأجبنا نداءه ﴿رَبَّنَا﴾ تكرير للتضرع، وإظهار لكمال الخضوع^(١) ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي كبائرنا ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ أي صغائرنا، وإنما ذكر وهما للتأكيد، أي

(١) في هذه الآيات، تعليمٌ من الله لعباده، كيف يدعوونه ويبتهلون إليه، وتكرير «ربنا» من باب التضرع، وإظهار كمال الخشوع، وهو مما يوجب حسن الإجابة.

غَطُّ ذُنُوبِنَا فَلَا تَظْهَرُهَا بِالْعِقَابِ عَلَيْهَا ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ أي اقبض أرواحنا في جملة الأبرار وبصحبتهم وزمرتهم، وفيه إشعار بأنهم كانوا يحبُّون لقاء الله تعالى، والأبرار جمع البار، وهو الصالح الكثير البر الصادق في قوله وفعله .

﴿ رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ أي على السنة رسلك، جَمَعَ الرسل مع أن المنادي الرسول ﷺ وحده، لما أن دعوته ﷺ منطوية على دعوة الكل، وإنما طلبوا إنجاز ما وعد الله، والله لا يخلف الميعاد، لأن مرادهم أن يقولوا اجعلنا ممن له الوعد، وقيل: هو من باب اللجوء إلى الله تعالى، ويقصدون بذلك التذلل لربهم ﴿ وَلَا نُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ بأن تعصمنا عما يوقننا في الخزي في ذلك اليوم، قصدوا بذلك وعده تعالى بقوله: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ والخزي: الذل والهوان، والإخزاء هو الإذلال بما فيه فضيحة أو عار ﴿ إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ بإثابة المؤمن وإجابة الداعي، والميعاد: الوعد، وهذه الدعوات ليست لخوفهم من إخلاف الميعاد، بل من أن لا يكونوا من جملة الموعودين، بتغيير الحال، وسوء الخاتمة .

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ۖ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ۗ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ بَّحَّرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ۚ .

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ دعاءهم، وصيغة الماضي للإيدان بتحقيق الإجابة ﴿ أَنِّي ﴾ أي بأني، الباء للسببية، كأنه قيل: فاستجاب لهم ربهم لسبب أني ﴿ لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ ﴾ أي سُتِّي مستمرة على ذلك، والمراد الإشعار بأن مدار الاستجابة، أعمالهم التي قدّموها، لا مجرد الدعاء، وهذا يدل على أن الفضل في باب الدين، بالأعمال الحسنة لا بصفات العاملين ﴿ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ﴾ بيان للعامل، وتأكيد لعمومه ﴿ بَعْضُكُمْ ﴾ أي

الذكور والإناث كائن ﴿مِنْ بَعْضٍ﴾ لأنهما من أصل واحد، ولاتفاقهما في الدين والعمل، روي عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: قلت يا رسول الله ما أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله تعالى الآية^(١) ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ تفصيل لأعمال العمال، وما أعد لهم من الثواب على سبيل المدح، والتعظيم، والمعنى: فالذين هاجروا من الأوطان من أجل الدين ﴿وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ التي ولدوا فيها ونشأوا ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾ بسبب إيمانهم بالله، ومن أجله، وهو متناول لكل أذية نالتهم، بالشم والضرب والتحقير، ونهب الأموال، فالهجرة كاتبة في آخر الزمان، كما كانت في أول الإسلام ﴿وَقَتَلُوا﴾ الكفار في سبيل الله ﴿وَقَتَلُوا﴾ استشهدوا في الجهاد ﴿لَا كُفِرْنَ﴾ جواب قسم محذوف أي والله لا كفرن عنهم سببناهم ﴿لأموالها وأسترها بالمغفرة، وهذا تصريح بوعد ما سأله الداعون ﴿وَلَا دَخَلْنَاهُمْ جَنَّتٍ بَحْرِيٍّ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ هذا ما عبّر عنه الداعون بقولهم: ﴿وَأَتْنَا مَا وَعَدْتَنَا﴾ وتفسير له ﴿تَوَابًا﴾ مصدر مؤكد أي أثبهم بذلك إثابة ﴿مَنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ تفضلاً منه تعالى ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ التَّوَابِ﴾ الجزاء يختص به جلّ وعلا، ولا يقدر عليه غيره.

﴿لَا يَغْرَتَكَ فَعَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْيَلْدِ ﴿١٩٧﴾ مَتَعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمَ وَيُبْسُ الْمَهَادُ ﴿١٩٨﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّتٌ بَحْرِيٌّ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٩﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشَعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠١﴾﴾

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم ٣٠٣٢.

﴿ لَا يَعْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴾ بالتجارة والكسب، بيان لقبح ما أوتي الكفرة من حظوظ الدنيا، والخطاب لكل أحد ممن يصلح للخطاب، أو للرسول ﷺ والمراد به غيره، والمعنى: لا تنظر إلى ما عليه الكفرة من السعة، والحظ، ولا تغترّ بظاهر ما ترى من تبسطهم في مكاسبهم، ومتاجرهم، ومزارعهم.

روي أن بعض المسلمين كانوا يرون المشركين في رخاء، فيقولون: إن أعداء الله فيما نرى من الخير، ونحن في الجهد، والجوع، والبلاء، فنزلت الآية.

﴿ مَتَعٌ قَلِيلٌ ﴾ أي ذلك التقلب، متاعٌ يتمتعون به يسيراً في الدنيا ويفنى، أو قليل في جنب ما أعد الله للمؤمنين ﴿ ثُمَّ مَا لَهُمْ ﴾ أي مصيرهم الذي يأوون إليه ﴿ جَهَنَّمَ وَيَسَّسَ الْهَادُ ﴾ أي ما مهّدوا لأنفسهم، عن عمر بن الخطاب قال: «جئتُ رسول الله ﷺ فإذا هو على حصير، ما بينه وبينه شيء، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيْتُ، فقال: ما يبكيك يا عمر؟ قلت يا رسول الله: إن كسرى وقيصر على فُرُش الديباج والاستبرق، وأنت رسول الله تنام على الحصير؟ فقال: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟ أولئك أقوامٌ عَجَّلَتْ لهم طيباتُهم في حياتهم الدنيا»^(١)..

الحديث.

﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ ﴾ بيان لحسن حال المؤمنين ﴿ اتَّقَوَارِبَهُمْ ﴾ وإيراد التقوى للإشعار بكون الخصال المذكورة من باب التقوى والمراد به الانتفاء من الشرك والمعاصي ﴿ لَهُمْ جَنَّتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ النَّزْلُ: ما يُعَدُّ لِلنَّازِلِ وَالضَّيْفُ، من طعام، أو شراب ونحوها ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي الثواب ﴿ خَيْرٌ ﴾ لكثرتِه ودوامه كائن ﴿ لِلْأَبْرَارِ ﴾ مما يتقلب فيه الفجار من متاع الدنيا، لقلته وسرعة زواله، والتعبير عنهم بالأبرار

(١) هذا طرف من حديث رواه الشيخان، وانظر كامل الحديث في فتح الباري ٦٥٨/٨.

للإشعار بأن الصفات المذكورة من أعمال البر، كما أنها من التقوى، التي ينبغي أن يتحلّى بها المؤمنون.

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ نزلت في مؤمني أهل الكتاب ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ﴾ من القرآن ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ ﴾ من الكتابين، وقدّم الإيمان بالقرآن، لأنه آخر الكتب الإلهية، ولا يصح إيمان أحد حتى يؤمن بجميع كتب الله ﴿ خَشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ حال من فاعل يؤمن والجمع باعتبار معنى من ﴿ لَا يَشْتَرُونَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أي لا يغيّرون كتبهم، ولا يكتمون صفته ﷺ لأجل الرياسة، والمتاع القليل ﴿ أُولَئِكَ ﴾ إشارة إليهم بما عدّ من صفاتهم الحميدة ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ أي المختص بهم الموعد بقوله تعالى ﴿ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ ﴾ ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ والمراد به التشريف ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ لنفوذ علمه لجميع الأشياء.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ختمت السورة بما يوجب المحافظة عليها فقيل ﴿ أَصْبِرُوا ﴾ على مشاق الطاعة، وتكاليف الدين، وما يصيبكم من الشدائد في الدنيا ﴿ وَصَابِرُوا ﴾ أي غالبوا أعداء الله، بالصبر في مواطن الحرب، أو على مخالفة الهوى والمعاصي، وتخصيصه بعد الأمر بالصبر لكونها أشد منه وأشق ﴿ وَرَاطِبُوا ﴾ أي أقيموا الثغور رابطين، مترصدين ومستعدّين للغزو، وفي الحديث الشريف: «رباطٌ يوم في سبيل الله، خير من الدنيا وما عليها»^(١) الرباط مصدر رباط إذا أقام في ثغر من ثغور الإسلام حارساً له من العدو، وعن سلمان «رباط يومٍ وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه، وإذا مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل» يعني يكتب له أجر رباطه إلى يوم القيامة، وفيه فضيلة مختصة للمرابط لما

(١) الحديث أخرجه البخاري ١١/٦ في الجهاد، ومسلم رقم ١٨٨٠ وتتمته «وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله - أي رجوعه من الغزو - أو الغدوة، خير من الدنيا وما عليها» وانظر جامع الأصول ٤٧١/٩.

جاء في صحيح مسلم «كلُّ ميت يُختم عليه عمله إلا المرابط^(١)» ﴿وَأَتَّقُوا
اللَّهَ﴾ في مخالفة أمره على الإطلاق ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ كي تتنظموا في
زمرة المفلحين، الفائزين بكل مطلوب، الناجين من كل الكروب.

«تمَّ تفسير سورة آل عمران والحمد لله رب العالمين»

(١) أخرجه بهذا اللفظ الترمذي رقم ١٦٢١ وأما رواية مسلم ١٥٢٠/٣ فهي بلفظ «رباطُ
يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صيام شهرٍ وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعملهُ،
وأجرى عليه رزقُهُ، وأمنَّ الفتان».